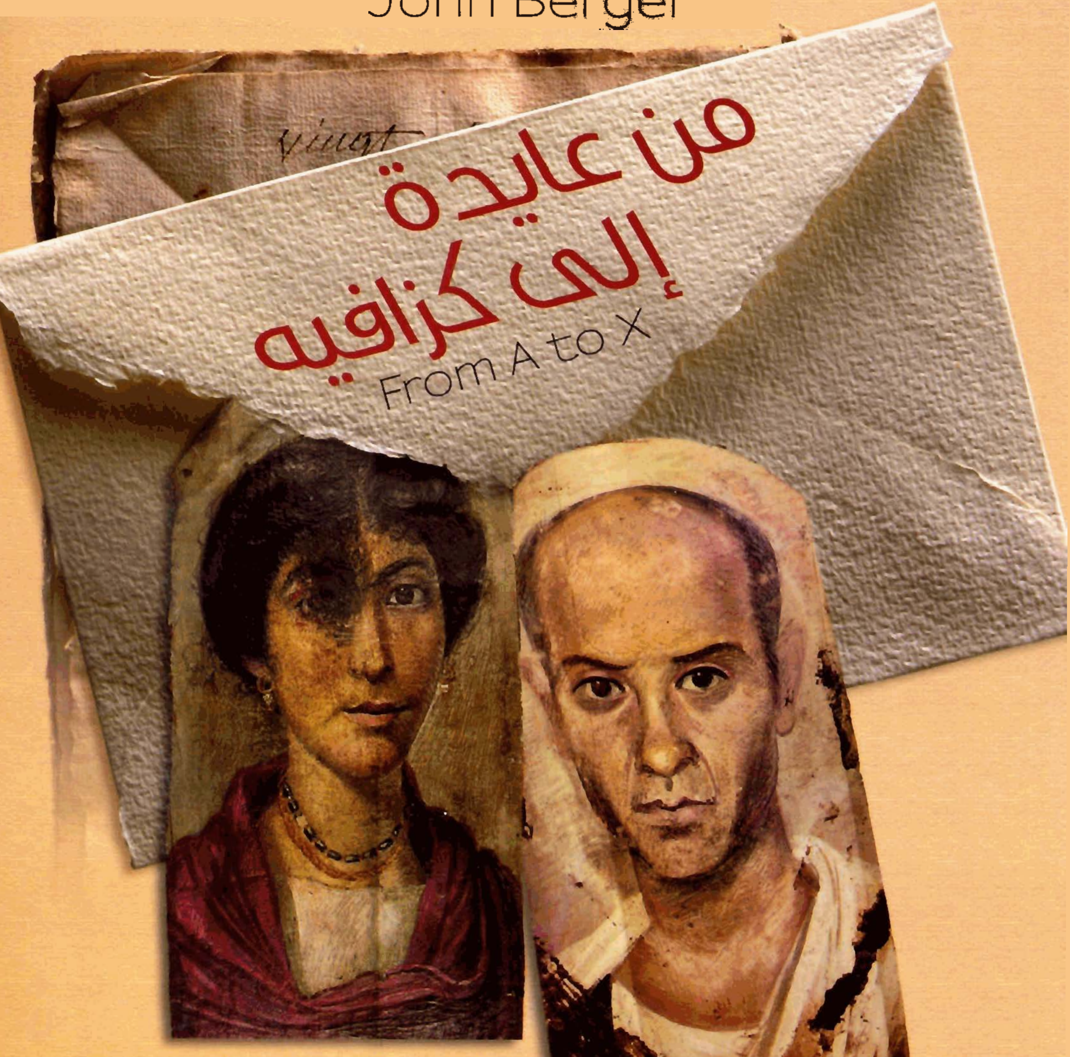
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جـون بـرجـر
John Berger

من عايدة إلى كزافيه

From A to X



روايـة في رسـائـل

ترجمة: د. فتحية السعودي و تانيا تماري ناصر

من عايدة إلى كزافيه

From A to X

من عايدة إلى كزافيه

رواية في رسائل

From A to X

A Story in Letters

تأليف

جون برجر

John Berger

ترجمة

د. فتحية السعودي و تانيا تماري ناصر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
From A to X
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Verso
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0190-6

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

في ذكرى غسّان كنفاني،

وإلى ريم، وبفرلي، وشروق

ليس الحبّ أضحوكة الزمن...

الحبّ أبديٌّ مهما طال أو قصر عمره،

يعانق الزمن حتى مشارف الموت.

لو كنت أخطأت في ذاك، لما أحببت يوماً،

ولا بقي الحبّ نابضاً بين البشر.

شكسبير، سوناتا 116

تقديم

د. فيصل درّاج

"مـــن عايدة إلى كزافيه" عنوان الكتاب الجديد لجون برجر، ناقد الفن الذي يجاور الفيلسوف و"الفيلسوف العفوي"، الذي ينقد ما يشوّه وجـــوه الحـــياة. قد يبدو هذا النص الفاتن رواية عن جمالية الاتصال وأوجاع الانفصال، أو نثراً طليقاً يؤانس الأرواح المفردة ويحتضن المطر والعصافير ويتسلل إلى سجون رهيبة الأسوار. لكنه، في الحالين، شهادة علـــى فكـــر شـــغوف بالعدل والتحرر. ولعل صداقة التحرر هي التي جعلـــت برجر يكتب رواية مغايرة تستولد قواعدها الذاتية وتبتعد عن القـــواعد المـــتعارف علـــيها، وذلك لكونها تجربة الكاتب مع تجارب الآخـــرين، والتي تتعدّد ألوانها كما تتعدّد ألوان الفردوس. فلكل إنسان معـــتقل قـــصة، ولكـــل قلـــب عاشق لا يقبل الاعتقال متواليات من القـــصص، والقـــصص جمـــيعاً محفوظة في رسائل، يحافظ عليها بشر مخلصون يكرهون النسيان.

كـــتب برجـــر، في روايته، عن الحب والأمل والمقاومة، وعمّا لا يجـــب نسيانه، من آلام البشر وآمالهم، فالنسيان يدفن خبرات كريمة، ويتـــرك قصص المضطهدين في الريح والعراء. جمع في نصه بين أخلاق التذكر، التي لا تترك السجين في زنـــزانته وحيداً، وجمالية الكتابة التي

ترسل إلى المقموع صوتاً يحتاجه، وتقنع الصامدين بأن لهم زملاء من الأموات قاوموا وفاقهم النصر. وهذا البدء من المعيش الشاسع، الذي تواجه فيه مكتبات النور حرّاس الظلام، هو الذي يضع في كتاب برجر لهباً حميماً، ويمنع عنه الغبار. والكل هو التجربة، تجربة الناقد – الفيلسوف وهو "يؤرشف" حكايات اليتم والفرح، وتجربة "أصوات للأرشيف"، التي تدوّي في قاعات السجون وترهب السجّان، وتجربة القارئ الذي يصطدم، يومياً، بسجون واسعة أخرى لا ترى. تصبح الحياة في تجربة مناهضة النسيان، دفاعاً عن الحياة، وتغدو الكتابة حواراً بين السجناء وآخرين يشبهون الأحرار، ذلك أن وجود السجن يحوّل ما خارجه إلى سجن آخر.

تأمل برجر، وهو يكمل كل حكاية بأخرى، حرية الإنسان المصادرة، آخذاً بنثر مبتكر، يوسّع المعنى المباشر، ويضيء الصورة المرئية، بصور محتجبة. دفعه نثره الحر، الذي يساوي بين كرامة الإنسان والمطلق، إلى معالجة قيود المكان والزمان، حالماً بمكان تحرّر من زمانه، ينقّل الإنسان بين ما شاء من الأمكنة، وحالماً بزمن تحرّر من مكانه، يستعيد الأليف الذي كان والمنتظر الجميل الذي سيكون. والواضح في التحرر المزدوج هو الإنسان الذي أضيفت إلى أوجاعه الذاتية قيود السلطات المستبدة، والواضح أيضاً تنوّع الرغبات الإنسانية، الممتدة من أم تتذكّر صوت ابنها السجين، إلى سجين يشتاق إلى الساحات والشوارع العادية، وإلى موعد غرام لا يلغيه رجال المخابرات.

وراء كل سجن سجون، ووراء كل سجن فردوس محتمل. وما الحياة، المتمردة على العادات والانتظار الموروث، إلا الرحيل الحالم إلى مكان مريح، يعيش الإنسان فيه رغباته الطبيعية دون حذف أو إضافة. ذلك أن الاغتراب الصادر عن حياة ناقصة يبدّل الطبيعي إلى غير

الطبيعـــي، ويصيّر الشوارع إلى مكان لاصطياد البشر، ويؤجل مواعيد العـــشاق إلى أجل غير مسمى. ولهذا ساوى برجر، الذي ينفذ إلى قرار الـــرغبة الإنـــسانية، بين الكتابة والمقاومة، واستولد للكتابة المقاومة ما تحـــتاجه مـــن عناصر، جامعاً بين الفلسفة والأدب والمأساة والسخرية والـــشعر والتقرير الصحفي، منتهياً إلى "حكمة" معلقة في الفضاء، لا تتعرّف عليها إلا الأرواح المقاومة.

يـــبدو كـــتاب برجـــر رواية عن الحب، تسرد أحوال مناضلين ومناضـــلات تجسّر رسائلهم المسافة بين السجن وخارجه، وتحنو على رغبـــتين تنتظـــران التحقق. لكنه يظهر، في اللحظة عينها، رواية عن المقاومـــة، لأن في الرسائل ما يستنهض الأرواح المحاصرة ويساوي بين الحـــياة والأمـــل. والرواية، في الحالين، كتاب عن المقاومة في الكتابة، القائلة بحق البشر في المساواة، وبحق القراء بكتابة تعترف بالجميع، بعيداً عن ثنائية القارئ البسيط والقارئ المحترف. ولهذا فإن برجر لا يضع في روايـــته مـــا "عثر عليه في الطريق"، كما لو كان واعظاً أخلاقياً، بل يؤالف بين الدعوة إلى المساواة والإبداع الكتابـــي، منتجاً نصاً كثيفاً، يستنهض الضحايا ويتعلم منها، ويرى في الضحايا مقاومتها "البسيطة" التي تهزم، في النهاية، تعاليم الطغاة.

تمـــثل الرســـائل، في عالم موصد الأبواب، شكلاً من المقاومة، تـــضيف إلى الروح المفردة روحاً أخرى، وتجبر جدران السجن على التـــراجع، قليلاً، وتؤكد أن السجن أوسع من مكانه، وأن كلمات الرسائل تنفتح على أكوان واسعة. والأمر كلّه في المواجهة المفتوحة بـــين الحصار وكسره، فالذاكرة المقاومة، أوسع من زمنها، وبعض الكـــتابات أوسع من موضوعها وفي بعض الكلمات، التي اختارها كـــتابة مـــبدعة، أكوان رحبة. ولهذا ينتج برجر ما يشاء من تلاقي

الكلمـــات المخـــتارة، إذ للأقفـــاص أجنحة، وإذ الأجنحة المحلّقة تستنهض الكسيح على الطيران.

لا تنفـــصل جمالية القيم، في رواية برجر، عن جمالية الكتابة، التي تجمع العوالم المختلفة في عالم مفتوح، تؤثثه المعرفة وإرادة المعرفة، وتضع في منتـــصفه إنـــساناً تحرّره إرادته، في انتظار زمن كوني سعيد يتلف الأقفـــاص. إنهـــا المسؤولية الحكيمة، التي تدرك أن الدفاع عن الجميل يـــتطلّب وسائل جميلة، حالها حال الحقيقة، التي تسلك "طرقاً حقيقية"، وهي تنادي على عالم إنساني جميل يقف في مكان ما.

تجـــدر الإشـــارة إلى التـــرجمة الأمينة، التي تعاملت مع الكتاب بإخلاص كبير، مدركة أن الجميل يترجم بلغة تنتمي إليه.

بعض الرسائل التي استعادها جون برجر

في العــــام الماضي، بعد افتتاح السجن الجديد ذي الحماية المشدّدة والمقــــام على تلّة في شمال مدينة سيوس، تمّ إغلاق السجن القديم الواقع في وسط المدينة والتخلي عنه نهائياً.

آخر نـــزيل في الزنـــزانة رقم 73 في السجن القديم كان قد أعدّ علـــى الجدار، قرب سريره الضيّق، رفاً متعدّد المربعات. أعدّ هذا الرف من علب سجائر المارلبورو الفارغة التي أحكم تثبيتها إلى الجدار بواسطة شـــريط لاصق. يتّسع كلّ مربّع لاحتواء عدّة مجموعات من البطاقات. في ثلاث منها وجدت بضع حزم من الرسائل.

يتسرّب ضوء النهار، إلى تلك الزنـــزانة، عبر فتحة دائرية ضيّقة، لا يمكن الوصول إليها، في قمّة أحد الجذران. مساحة الزنـــزانة متران ونصف بثلاثة أمتار وبارتفاع أربعة أمتار.

كان ممر طويل ذو نوافذ مسيّجة بقضبان وزجاج داكن اللون، يصل الزنازين في هذا الجناح من السجن القديم بقاعة جماعية أشبه بملجأ، تتوافر فـــيها تسهيلات بدائية للطبخ، وحنفيّة ماء، وتلفاز، ومقاعد، وطاولات، ومنصّة مرتفعة مخصصة لحرّاس دائمين مدجّجين بالأسلحة.

آخـــر سجين في الزنـــزانة رقم 73، قد وُجِّهت إليه تهمة تأسيس شبكة إرهابية، وتهمة كونه عضواً فيها، ويقضي حكم عقوبة بالسّجن مدى الحياة لمرّتين. كان معروفا باسم كزافيه. والرسائل التي وجدتْ في مربّعات الرفّ كانت موجّهة إليه.

أصبح من الواضح بعد قراءة الرسائل أنّها لم ترتّب حسب تسلسل زمني. عايدة - لو كان هذا اسمها الحقيقي - لم تؤرّخ رسائلها حسب السنوات، بل فقط حسب أيام الشهر. من الواضح أيضا أنّ هذه المراسلات استمرّت على مدى عدّة أعوام. وعوضاً عن محاولة استنتاج أو تخمين تسلسلها الزمني، قررت أنا و"س"، أثناء قيامنا بإعادة كتابتها، الحفاظ على التسلسل الذي اتّبعه كزافيه. ومن حين لآخر خلف صفحات رسائل عايدة (لم تكتب قطّ على جهتي الصفحة) دوّن كزافيه بعض الملاحظات. نقلنا هذه الملاحظات أيضا وطبعناها في هذا الكتاب بخطّ داكن.

من الواضح أن عايدة اختارت ألاّ تلمّح في رسائلها إلى تفاصيل حياها كمناضلة. ولكن، بالرغم من ذلك، لم تستطع مقاومة ما أظنّه إشارة إلى تلك الحياة. هذا ما استنتجته من ملاحظاها حول لعبة الكناستا، وأشكّ أنّها كانت تلعبها فعلا. فعلى غرار حذرها الآنف ذكره، من المؤكّد أنّها بدّلت أسماء معارفها المقربين وأسماء الأماكن. وبما أن عايدة وكزافيه لم يكونا متزوّجين، فلم تكن هناك إمكانية لحصولها على تصريح لزيارته.

هناك بعض الرسائل التي كتبتها عايدة و لم ترسلها. أحيانا، كما يبدو، كانت تبدأ بكتابة رسالة ما مدركة منذ البداية أنّها ستبقى غير مرسلة، فأهمّية ما كانت ترغب في قوله دفعتها، بين حين وآخر، إلى كتابة أشياء قرّرت بعد مراجعتها أنه من الأفضل الاحتفاظ بها.

أمّا الطريقة التي وصلت بها تلك الرسائل المرسلة وغير المرسلة، إلى حوزتي، فلا بدّ من أن تبقى - في هذه المرحلة - سرّية، لأن شرحها قد يعرّض آخرين للأذى.

كُتِبتْ الرسائل غير المرسلة على الورق الأزرق ذاته كالرسائل المرسلة. قرّرتُ وضعها في حزمة الرسائل التي بدت بالنسبة إليّ مناسبة لها. ولكن، يمكن للقارئ تغييرها.

أيّاً كان مكان كزافيه وعايدة اليوم، حيّين كانا أم ميتين، فليرعهما الله.

جون برجر

الحزمة الأولى من الرسائل

علـــى الــشريط القطني المربوط حول حزمة الرسائل، كتبت الكلمات التالية، بحبر تفشّى قليلاً عبر الشريط:

يُــشبه العـــالم الدماغ، وليس الآلة. الحياة قصّة تُروى الآن. الحقــيقة الأولى قصّة. هذا ما تعلّمته من خلال ممارسة مهنة الميكانيك.

أسدي على الأرض،

هـــل اســـتلمت آخـــر طرد أرسلته إليك؟ وضعت فيه سجائر المارلبورو، وكتاباً لزمبرانو، والنعناع الأخضر، والقهوة.

عندما استيقظت هذا الصباح كانت السماء زرقاء. أستطيع سماع نهيق حمار من بعيد، وعن قرب أسمع ضجيج قلاّبة للإسمنت يتداخل مع صوت ارتطامها بالأرض. دمتري يبني غرفة أخرى على سطح منـــزله. أرقد هنا، وأفكّر في جسدي بكسل؛ وكيف له حياته الخاصّة به، لأنني أعـــرف أن دوامي في الصيدلية لن يبدأ قبل التاسعة والنصف صباحاً. اســـتلقيت في الـــسرير ويدي اليمنى تلمس حوضي. أقول ذلك لكي تتخيّلني. لا أحد يقدر على حرمانك من ذلك.

كيف حال قدمك؟ هل تماثلت للشفاء؟

لك دوماً،

عايدة

ملاحظة:

شاهدت حرباء بالأمس، كانت تزحف على جذع شجرة تنشدّ إلى الأرض. إنّ لهـــا قـــدرة غير اعتياديّة على لفّ حوضها. لها حوض صـــغير ذو عظام يشبه حوض الإنسان، لكنه قادر على الدوران حول محـــور عمـــودها الفقـــري بطريقة مختلفة، تبدو مضحكة وعملية. لذا فـــبإمكانها، في اللحظـــة ذاتها، الاحتفاظ بتوازنها على جدار عمودي

وأرض أفقـــية! ربّمــــا يمكننا التعلّم منها من أجل التفاوض حول بعض الـــصعوبات، ما رأيك؟ حسبما يقول ألكسيس الحرباء تعني باليونانية *أسد على الأرض.*

1,000 مليون شخص لا تتوفّر لهم مياه صالحة للشرب. في بعض مناطق البرازيل يكلّف شراء لتر من مياه الشرب أكثر من شراء لتر من الحليب. أما في فنزويلا فيتجاوز ذلك كلفة شراء لتر من الوقود. في الوقت ذاته، هناك خطط لإقامة مصنعين لعجين الورق، تملكهما شركة بوتنيا وإبس، وسوف يستخدمان 86 مليون لتر من المياه يومياً، لا بدّ من سحبها من نهر الأوروغواي.

مي غوابو،

هـــل تذكر الثعابين الثلاثة، المحفوظة في مرطبانات خلف واجهة الـــصيدلية؟ أفعى غير سامّة، أفعى سامّة، وأفعى سامّة ذات فم عريض. أذكـــر أنك أخبرتني عن قيامك بامتصاص سمّ أفعى كانت قد لسعت صـــديقا لـــك، كنت فتى آنذاك. عندما تصل إدلميس إلى الصيدلية، في صباح كلّ يوم، فأول ما تقوم به هو لمس كل مرطبانات الثعابين. ربّما لـــيس لتطمئنّ عليها، بل لتعلن عن وصولها. لها الحق في ما تفعله فهي صاحبة الصيدلية. بعد ذلك ترتدي زي العمل الأبيض وتقبّلني.

ما زالت ذاكرتها حول الأدوية خارقة، فهي تعرف بدقّة أين تجد كـــل دواء، وما هي مكوّناته الفعّالة والتحذيرات المرتبطة به. وفي حالة عدم وجود العديد من الزبائن فهي تفضّل الجلوس خلف طاولة صغيرة بـــين مضادات التشنّج والمراهم لتقرأ كتاباً. في معظم الأحيان تقرأ كتبا حـــول أدب الرحلات. كلمتها المفضّلة ما زالت *الاكتشاف*. تتوارى خلف تلك الطاولة حيث يمكنها تجاهل من يدخل الصيدلية للاستشارة أو لطلـــب دواء معـــيّن. ولكنّها تظهر وتتولّى الأمر شخصيّا، عندما يـــشكو أحد المراجعين أو يستفسر عن موضوع يثير اهتمامها، أو عند قدوم شخص تعرفه منذ أكثر من خمسين عاماً.

آنـــذاك يمكن معرفة مدى إعجاب الآخرين بها. تنتمي إدلميس إلى جـــيل طلائع النساء اللواتي درسن علم الصيدلة. إنها امرأة تعتبر العلوم بمـــثابة شقيقة لها، وأن عالم الصيدلة قريب من الأمومة. من عادتها أن تنظر إلى المرآة فوق المغسلة قرب محاليل غسل الفم لتصفّف شعرها، ثم

بكلماتها البطيئة وذكرياتها المتراكمة تطمئن كلّ من جاء بحثاً عن الطمأنينة.

لكن، بعد أن تخلع الزي الأبيض وتغادر صيدلية سقراط للعودة إلى منزلها عبر محطة الباصات، تبدو هزيلة، ومتردّدة، ومسنّة. كم شاخت منذ رؤيتك لها آخر مرّة. وأنا أيضاً. وما استمرارها في العمل إلا لأنها ترتاح للعيش بين الأدوية. أحسدها في بعض الأحيان.

كلمة **مؤخراً** اختلفت منذ اعتقالك. هذه الليلة لا أريد كتابة كم مضى من الوقت على ذلك. كلمة **مؤخراً** تشمل الآن كلّ تلك الأوقات. في وقت ما كانت تعني بضعة أسابيع أو ما قبل أمس. مؤخراً رأيت حلماً.

في الحلم كان طريق، طريق خطر، مليء بعدّة كمائن وبقنوات عميقة. طريق مغبر. طريق مكشوف. هناك قُتل الكثيرون أو أصيبوا بجروح في ظروف مختلفة؛ هذا ما عرفته في الحلم. كان ذلك مكتوبا كوشم على سطح الطريق المتشقّق. كنت أسير على الطريق، كسيرة القلب، لكن دونما خوف. ربّما كان طريق اللاجئين منّا. فمثل هذه الأحداث - أعتقد ذلك الآن - تحدث في الأحلام، ولكنني أثناء الحلم لم أفكّر في هذا. كنت أمشي فقط. وفي لحظة ما، إلى يميني، كانت هناك تلّة حجرية بعلو جدار غرفة. توقّفت وصعدت بصعوبة إلى قمّتها. ماذا رأيت هناك؟ لا أعرف أي كلمات أنطق بها. لم أجد كلمات هناك. غير أنه في طيّات الكلمات غير المجدية سوف ترى ما رأيت. رأيت عدّة أكوام، ركاماً، أكداساً، حمولات من البرقوق الأزرق المغطى بالصقيع. تفاجأت بأمرين يا حبيبي. أولاً، حجم الأكوام، فكلّ كومة منها يمكن أن تملأ قطار شحن من أربعين عربة. لم تكن الأكوام مرتفعة لكنها كانت عريضة وممتدّة. والشيء الآخر الذي

تفاجـــأت بـــه كـــان لونها، فبالرغم من الصقيع الأبيض، كانت زرقة الـــبرقوق مـــشرقة ومـــتوهّجة. لا تخطئ في ذلك، لم تكن بمثل زرقة السماء، بل كانت زرقة برقوق صغير ناضج. زرقتها هو ما أرسله إليك وأنت في زنـــزانتك الليلة، بينما أكتب في الظلام.

عايدة

تجاوز سعر الذهب 700 دولار أمريكي للأونصة.

حبيبي،

بداية ضوء نهار جديد تعلن انبعاثها الحتمي. ينبثق الضوء بعزم، قرار تمّ اتّخاذه. ليسوا هم بطائراتهم المروحية ولسنا نحن. ربّما ستبدو أشياء كثيرة في يوم ما أكثر وضوحاً حول من هو صاحب القرار وماهيّته.

انبعاث الضوء هناك من جهة اليسار، كالندى فوق الأفق في الشرق. يبدو لونه كحليب مذاب: أربعة أجزاء من المياه وجزء من الحليب المقشود.

هناك أوقات أعتقد فيها أنّ ما تبقّى لي لا يتجاوز بضعة شهور أحياها قبل موتي؛ بعد حياة طويلة. وفي أوقات أخرى، أشعر وكأنّ عمري هو أحد عشر عاماً، وأنني أنتظر اكتشاف كلّ شيء تقريباً.

ثمانية أشخاص قضوا ليلة الأمس هنا، طفلان، ثلاث نساء، رجلان وأنا. الأطفال صحوا باكراً مثلي. دواعي النوم عندهم أقلّ منه عند البالغين، إضافة إلى وجود أشياء محدودة لا يريدون رؤيتها أبداً مرة أخرى.

في بعض الأوقات، تكون ردّات فعلي فورية وفطرية مثل أم. آنذاك، أمارس مهمّة حماية من حولي ببراعة، مهملة أي حجة مؤيّدة أو معارضة. في أوقات أخرى، أنا مستعدة للتخلي عن ما تسمّيه، مي غوابو، سلوكي الذكوري من أجل الموت في سبيل الدفاع عن تلك العدالة الأنانية التي غابت منذ زمن طويل من دون همس كلمة!

تحت معطفي الذي طويته ليصبح وسادة، رنّ هاتفي النقال مرّتين. رســـالة مسجّلة على شاشة الهاتف المضيئة أكثر من السماء: لن تنحني رؤوسنا إلى الأسفل كي تصل إلى قذارتهم.

لك دوماً،

عايدة

ملاحظة: رسالتك حول الحمير أضحكتني كثيراً.

في طريقي إلى الصيدلية، مررت برجل لم أتعرّف إليه، كان يجلس على حافة الطريق قرب الدوار في أسفل التلّة حيث تعلو شجرة توت. بالقـــرب منه كانت هناك درّاجة مهشمة، ذات عجلة أمامية مبعوجة. كان في مثل عمرك تقريباً ولكنه لا يشبهك مطلقاً.

ما من رجل آخر يشبهك. كلّ ما هو حيّ مركب من المركبات الأوّلية نفسها، ولكن كلّ إنسان ذو تكوين مختلف.

لم يكـــن واضـــحاً إن كـــان قد سقط عن دراجته أو إذا كانت دراجته سُرقت ووجدها للتو. يمكنني القول، رغم ذلك، من طريقة لمسه إيّاها أنها كانت دراجته. كان بنطاله ممزقاً من جهة واحدة مما أوحى لي أنـــه ربّما سقط عن الدراجة. وفي الوقت ذاته كانت ثيابه رثّة وحذاؤه ممـــزقا وباليا عند الكعب. ربّما سقط عن دراجته أو عابر سبيل اعتدى على دراجته أثناء نومه أو ربما هو السارق.

عـــندما تكـــون بمفردك لوقت طويل، كما هو حالي الآن، يمكنك اختراع افتراضات لا تنتهي حول مواضيع سخيفة مثل هذه. لـــو كنت معي لما أوليت الأمر لحظة من تفكيري. لم أسأل الرجل عمّا حدث لأنه بدا منهمكاً في التفكير في ما ينبغي له فعله آنذاك. كـــان يجلس ومرفقاه فوق ركبتيه، وذقنه على يديه، وأصابع قدمه اليسرى تبحث عن ملاذ تحت قدمه اليمنى. كان على وشك اتّخاذ قـــرار ما. في مثل تلك اللحظات، يُعلن كثير من الرجال عن تلك النظرة الخاصّة، كما لو أنهم على استعداد للموافقة على الاختفاء أو التلاشـــي في السماء. يا له من استشهاد صغير. تختلف النساء

عـــنهم، فهنّ يتّخذن معظم القرارات وهنّ جالسات بثبات على أردافهن.

هـــا قـــد اتّخذتُ قراراً. لم لا نتزوج؟ هل تسألني! أقول نعم! ثم نـــسعى للحصول على موافقتهم. لو حصلنا عليها سأزورك من أجل حفل الزواج، ومرّة كلّ أسبوع في غرفة زيارة السجناء وإلى الأبد!

في كلّ ليلة أتذكّرك. أحضنك عظمة رقيقة إثر عظمة رقيقة.

لك دوماً،

عايدة

بوليفيا: مُنح عمال الأرياف الذين لا يملكون أرضا زراعية 12 ملـــيون هكتار من الأراضي. هناك 142 مليون هكتار أخرى سوف يعـــاد توزيعها، فيما لو نجحت الخطّة، على نحو 2.5 مليون شخص. أي ربـــع السكان. في هذا المساء، إيفو مورالس أنت معنا هُنا. تعال واجلس معي في زنـــزانتي، حجمها متران ونصف بثلاثة أمتار.

كانادىم، جناحي،

التقـــيت سوكو مرّات عديدة هذه الأيام. اختفى ابن شقيقها من دون أثـــر. زوجـــة شقيقها ترقد الآن في المستشفى على حافّة الموت. تعطّلت سيارة شقيقها الذي يعمل كسائق، وبالتالي فقد مصدر رزقه. كـــذلك تدنّت قدرة سوكو على ممارسة مهنة الخياطة، و لم تعد قادرة على متابعتها لأن قوة بصرها تضاءلت. أصبحت الآن بحاجة إلى إجراء عملـــية إعتام عدسة العين، ولن تتمكّن مطلقا من توفير كلفتها. تقول: من دون مال لا يمكن القيام بشيء. لا شيء.

إنّهـــا تندب حظّها في كل مساء. ويعرف الله أن لديها ما يكفي مـــن المبرّرات. في شكواها الليلية تتساوى كلّ محنها، لذا تنسجها معاً مثل حبل مجدول، وتردّدها في أثناء صلاتها المستمرة، راجية الله أن يغفر لها ويرحمها.

فكّرت، بينما كانت تندب وتنوح هذا المساء، لو كنت أنت من يـــستمع إليها! لأوضحت لها كيف تفرّق بين شكاويها، ثم تتمعّن بها واحدة واحدة، لتقرّر ما يمكن إصلاحه منها وما يستحيل إصلاحه.

تفكـــيك الأشياء ثم جمعها ثانية، ذكّراني بقصة راديو والدك. ما زالت صورته حيث وضعناها على رفّ المكتبة الثاني. كلاكما لديكما جبين عريض. لكن جبينه أعرض.

كان ذلك في يوم خاص للتسوّق، وكانت المدارس في عطلة. كم كـــان عمرك؟ عشرة أعوام على ما أظنّ. لا بدّ من أن أسأل والدتك. ذهب والدك مع أصدقائه لمعاينة قطعان الماشية. أما أنت – وقد تركوك

وحيداً – فقد فككت راديو والدك إلى قطع، ورتّبتها قطعة قطعة فوق الحصيرة. تذمّرت والدتك وفركت يديها. عندما عاد والدك، لم يتوقّف عن الصراخ: لماذا؟ لماذا؟ كيف تفعل هذا؟ لماذا؟ كان الراديو يبثّ بشكل عادي! لماذا؟ همست: لكي أعيد جمع القطع معاً مرة أخرى. آنذاك خفض والدك ذراعيه. سأمنحك مهلة ساعتين، ساعتين فقط. عند حلول منتصف الليل كان يناولك آخر قطعة كما طلبت. في صباح اليوم التالي، استمعتما معاً إلى الأخبار، أنت وهو.

كانت نشرة الأخبار في ذلك الصباح، كما أكّدت لي دوما، حول اغتيال بن بركة في باريس، قبيل انعقاد مؤتمر هافانا. هناك أمر ما في أسلوب حديثك عن الموضوع يذكّرني فورا بهبوط طائرة بشكل اضطراري! ربما أصبحت أخبار الراديو منسيّة تماما في صباح اليوم التالي. كانت الأخبار الحقيقية تشبه قدرتك على تفكيك أجزاء الراديو ثم إعادة جمعها ثانية!

برفقتك، يمكن لسوكو إعادة النظر في محنها واحدة واحدة. وبين محنة وأخرى، ستظهر ابتسامة حزينة، ولكنها ستتحوّل تدريجيا إلى ابتسامة أقل حزناً.

أفتقدك الآن.

لك دوماً،

عايدة

"لا، لا نريد اللحاق بأحد. ما نريد تحقيقه هو المضي إلى الأمام في كـــل الأوقات، ليلا ونهارا، برفقة الإنسان، برفقة كلّ البشر. لا ينبغي إرهاق القافلة والمبالغة في زيادة امتدادها، لأنه سيصعب آنذاك على السائرين رؤية من هم في طليعة القافلة، فالبشر عندما يتوقّفون عن معرفة أحدهم للآخر، يتلاقون في ما بينهم أقل فأقل، ويتحدّثون مع بعضهم أقل فأقل".

حفظـــت هـــذا التحذيـــر عن ظهر قلب. سألت دوريتو عن الكاتب. قال إنه يعتقد أنه للكاتب المعروف فرانسوا فانون.

مي غوابو، مي سوبليته، كانادم، نور،

سألتني أندريا قبل بضعة أيام عن قصّة لقائنا لأول مرة؛ أنت وأنا. أخبرتها. الآن أريد أن أروي لك قصّة لقاءنا. يمكننا تغيير روايتي، لو رغبت. الماضي هو الزمن الوحيد الذي لسنا سجناء له. يمكننا تغيير الماضي تماماً كما نرغب. ما لا يمكننا القيام به هو تغيير نتائجه. دعنا نصنع الماضي معاً. كم سنة مضت على ذلك؟ كان الوقت في منتصف الصيف، والحرّ على أشدّه. كنت تقوم بإصلاح شاحنة، شاحنة مكشوفة. وكانت هناك عربات أخرى، بعضها من دون عجلات وملقاة فوق الحجارة. كان المكان واقعا في تجويف على جانب تلّة غرب سن شريب.

كانت هناك عمارة مبنية من الإسمنت ذات سقف منبسط ونوافذ صغيرة، لا بد أنّها كانت منزلاً لأسرة ما في أحد الأيام. استخدمتها أنت لحفظ أدوات العمل. كان هناك مقعدان، وكذلك سرير مع حصيرة بالية قربه، ربما كنت تنام هناك في بعض الأحيان. أمام البناء تعلو شجرة زيزفون ذات ظلّ شاسع.

كان يفترض بي تسليمك بطارية سيّارة. أتذكّر أنني كنت أحملها. كانت ثقيلة وقذرة. لذا عندما خرجت من سيّارتي حملتها بأطراف أصابعي، ممسكة بطرف حافّتها البارزة كي لا تلمس كمّي قميصي.

ضعيها أرضاً، صرخت بي حالما رأيتني وأنا أقترب.

كنت تلحم شيئاً ما. وأنت ترتدي زيّاً من الجلد وبنطالاً قصيراً. أمام وجهك قناع واق معدني أسود اللون.

عـــندما ظهر وجهك من خلف القناع، كنت تضع لصقة سوداء علـــى عيـــنك اليمنى، وكان وجهك متجهّماً كما لو أنك تتلوّى من الألم.

سألت: هل تؤلمك عينك؟

أجـــبت: أعاني من التهاب وينبغي لي مراجعة المستشفى. السبب هو هذه. ورفعت جهاز اللحام.

كـــنت تنـــتعل جزمة ثقيلة من الجلد من دون جوربين، وكانت رباطاها محلولة.

سألتني: من أين أنتِ؟

أخــــبرتك، وشرحت لك كيف أنّ رجلا في محطة الوقود، عندما رآني أســـلك هــــذا الطـــريق الذي لا يرتاده أحد، طلب مني توصيل البطارية.

نظرتَ إليّ من الأعلى إلى الأسفل، وهمست: شكراً لك.

سألتُ: كم من الوقت ينبغي لك إبقاء اللصقة فوق عينك؟

قلت: إلى أن أكتشف الذهب!

ثم، وأنت تبتسم، تقدّمت ببطء نحوي ونـــزعت اللصقة...

هل توافقني على هذه الرواية؟

عايدة

نقـــل المواقـــع، لا يـــشير فقط إلى ممارسة نقل مواقع الإنتاج والخـــدمات إلى مواقع جديدة حيث اليد العاملة أقلّ كلفة، بل يشير أيضا إلى مخطّط لتدمير بنية مواقع الإنتاج السابقة والثابتة كافّة بحيث يتحوّل العالم كلّه إلى "لامكان"، وإلى سوق واحد مثل سائل.

مثل هذا "اللامكان" ليس له علاقة بالصحراء. فللصحراء معالم أقـــوى من الجبال. الصحراء لا تنسى. حلّقنا فوق حصيروف على ارتفاع منخفض – كان الجزء السفلي من الطائرة عالقاً – وأطراف شـــفرتي دافع الطائرة متشابكة في الخلف. اكتشفنا ذلك الخلل بعد الهبوط في فاز. كنتُ ما زلت أتدرّب.

هذا السجن ليس في "اللامكان".

قد يحصل، عندما لا أضمّك إلى جسدي، أن أفكّر فيك كبطل في قصّة سمعتها يوماً ما. ليست قصّة أختلقها الآن، بل إنها قصّة سمعتها مرّة في الحافلة قبل أن يأمرونا بالنـــزول. ليس بمقدوري اختراعها، حتى لو عشت مئة حياة.

في القـــصّة، تنظـــر أنـــت إلى الأعلـــى، إلى حيث دهنت بعض الـــشعارات فـــوق حـــائط مرتفع قرب المطار. كنت تبتسم، فخورا بنفسك، وكأن الكلمات طائرة ورقية أخذت تحلّق للتو! وبما أنك مثل طفـــل، فقـــد كنت غير مبالٍ و لم تلحظ اقترابهم. بقيت مبتسما عندما حاصروك واقتادوك مثل ضفدع عبر ممرّ ضيّق. غطوا الشعارات بطبقة دهان جديدة. قالت امرأة مسنّة: لقد صبغوا كل شيء بالأبيض، كما لـــو أنـــه لم يحـــدث شيء، لكنّ الجدران ما زالت تصرخ تحت طبقة الدهان!

أذكـــر أنّك عندما كنت في السجن، في تلك المرّة الأولى، التقيت ألكـــسيس. رأيـــته الأسبوع الماضي. ما زال يشكو من الثؤلول نفسه الموجود على الجهة اليسرى من فتحة أنفه (محلول حامض الساليسيلك ($C_7H_6O_3$) يمكن أن يقضي على الثؤلول لو استخدم يومياً، مع مراعاة عدم لمس الجلد من حوله). ألكسيس ما زال يتلعثم كلّما شعر بالإثارة. لعبنا معا الهاند مرّة أو مرّتين.

يخـــتلف الأصدقاء الجدد الذين نتعرّف إليهم في السجن عن سائر الـــرفاق، أليس كذلك؟ فهم يحبّون النكت أكثر من غيرهم. يخرجون نكـــتة قديمة من جيوبهم، ويقضمون لقمة، ثم يروون النكتة لمن حولهم.

يصلون أيضاً بطريقة مختلفة حتى لو سافروا لمئات الكيلومترات. وهم يصلون من دون إشعار مسبق ومن دون تبريرات. وهم يعرفون عن يقين أنّهم مرحّب بهم.

لديهم أيضاً طريقتهم الخاصّة في تقرير متى يمكن العودة للحديث عن موضوع جدّي. دائما في لحظة غير متوقّعة، بينما يصعدون إلى سيارة وهم يطوون المقعد الأمامي إلى الأمام، أو عند رفع الصحون عن طاولة الطعام في نهاية الوجبة. هم أيضا شديدو التمعّن في دلالة الإشارات، وقد يكتبون بأعينهم وصل استلام حتى لأصغر خبر تلقّوه. من المستحيل عدم إبدائهم تعبيراً ما.

أنظرُ إلى عينيك، أنا لست صديقتك، أنا امرأتك. وأريد أن أقول لك شيئاً ما.

الآني ليس عكس الأبدي. بل إن النسيان هو عكس الأبدي. يدّعي البعض أن المنسي والأبدي، عند التدقيق فيهما، هما الشيء ذاته. وهم مخطئون.

يقول آخرون إن صنع المستقبل بحاجة إلينا، وهم محقّون في ذلك، لأن تحقيق تطلعاتنا المستقبلية بحاجة إليك في زنزانتك، بينما أكتب إليك وأرسل لك الفستق والشوكولاته.

قل لي عن حال قدمك. أريد أن أعرف.

لك دوماً،

عايدة

مهمــا بلغــت حسنات قانون ما، فهو أخرق على الدوام. لذا ينبغــي مناقــشة تطبيقاته أو مساءلتها. إنّ ممارسة مثل هذه المراجعة تساعد على إصلاح عيوبه وتخدم العدالة.

هــناك قــوانين ســيّئة تشرّع الظلم وغياب العدالة. إنّ هذه القــوانين ليــست خــرقاء، لأنّها تدعم بالتحديد عند تطبيقها، ما وضــعت من أجل دعمه وتقويته. لذا، لا بدّ من مقاومتها، وإهمالها، وهزيمتها. لكن، بالطبع، يا رفاق، فإن تحدّينا لها أخرق أيضاً!

مي سوبليته،

يمكنك القول، وأنت تنظر إلى رغيف الخبز، إنه ما زال ساخناً ولا يمكن التقاطه باليد. هناك عشرون رجلاً، ينتظرون منذ الساعة السادسة صباحاً، أمام مدخل الفرن بالقرب من الشارع المؤدّي إلى الصيدلية. عندما أصل إلى هناك مرتدية الزي الأبيض يسمحون لي دوما بتجاوز صفّ الانتظار. أراهم ينتظرون نحو ربع ساعة، وهم يتابعون بشغف خطوات إخراج الخبز من الفرن. يبدو لي أنه لم يكن لدينا، أنا وأنت، الوقت الكافي لمراقبة ذلك. لا ينظر الخبّاز إلى الرجال، بل يثبّت نظره على الخبز وعلى الجمر في عمق القبّة البيضاء الساخنة. ينظر الرجال بشغف كما لو أنهم يشاهدون مظاهرة ما. أريد أن أقول لك شيئاً آخر أيضاً.

هناك فرق شاسع بين الأمل والتوقّع. في البدء، اعتقدّت أن الفرق يكمن في المدّة الزمنيّة، وأن الأمل ينتظر أمرا ما زال بعيد المنال. كنت مخطئة. التوقّع ينتمي إلى الجسد، بينما ينتمي الأمل إلى الروح. هذا هو الفرق. يتحاور الاثنان، ويثير أحدهما الآخر أو يطمئنه. ولكن، لكل منهما حلم يختلف عن الآخر. تعلّمت شيئاً إضافيّا، وهو أنّه يمكن أن تدوم توقّعات الجسد طويلاً مثل أي أمل. مثل انتظار جسدي جسدك.

ما إن حكموا عليك بالسجن مدى الحياة مرتين، حتى توقّفت عن تصديق زمنهم.

عايدة

ملاحظة: هل استلمت الفجل المرسل بالبريد؟

أستاذ المدرسة (الذي كسر راعٍ نظّارته السميكة) استشهد لنا بـالآتي: "أجمل الأشياء التي لم نعد نراها هي: ضوء الشمس، النجوم الصافية في ليلة مظلمة، القمر بدراً، وفاكهة الصيف؛ الخيار الناضج، الكمثـرى، الـتفاح". قال الأستاذ: كُتبت هذه الكلمات بالأمس، لكنّها تعود إلى 2500 سنة مضت.

أجلس عند مقدّمة السطح، حيث تعوّدنا الجلوس معاً في الأمسيات الخانقة. أعتقد أنه بإمكانك السير وأنت مغمض العينين على الأسطح التي أراها. أنت تعرفها جيدا. قلتَ في رسالتك الأخيرة إن أمسياتك أصبحت طويلة منذ نحو أسبوع، لأنّهم يعيدونك يوميا بمفردك إلى الزنزانة، قبل نهاية النهار بثلاث ساعات، عقاباً لك على خطاب قمت بكتابته.

أنا متأكّدة أنهم عندما أبلغوك ذلك، لم يكن بمقدورهم قراءة أي انفعال على وجهك. أحبّ كتمانك. إنه دليل على نزاهتك. عبرت الآن طائرتا ف 16 على ارتفاع منخفض. إنهم ليسوا قادرين على كسر أسرارنا، لذا يحاولون اختراق طبلات آذاننا. أحبّ كتمانك. دعني أقل لك ما أراه الآن.

أرى أشياء متراكمة على عتبة النافذة، حبال غسيل، أطباقاً لاقطة، بعض الكراسي المسنودة إلى عمود مدخنة، قفصي عصافير، اثنتي عشرة شرفة ضيّقة ممتلئة بالعديد من أصص النباتات وصحونها الصغيرة المخصّصة لإطعام القطط. لو وقفتُ الآن يمكنني أن أشمّ رائحة النعناع والملوخية. أرى كوابل وأسلاكاً كهربائية منتشرة في كلّ اتجاه ممكن وتتدلى أكثر فأكثر مع مرور الوقت. ما زال إدواردو يحمل درّاجته صاعدا ثلاثة طوابق ليربطها قرب المدخنة. انتقل إلى جوارنا جيران جدد لا تعرفهم. أرسل إليك حكايتي اثنين منهم لتسامراك في المساء. عندما يغادرانك سآتي أنا.

فد، الجار الأول، يخلد إلى النوم في وقت مبكّر لأنه يستيقظ عند الثانـــية صـــباحاً كلّ يوم ليذهب إلى عمله. هذا اختياره. فهو يعمل بمفـــرده في صهر "خردة" الحديد التي يعثر عليها في الشوارع. عمره تـــسع وخمـــسون سنة. أعرف عمره لأنني سألته عنه في أحد الأيام. يبدو أصغر من عمره. هو من مدينة سادا. كان والده صيّاد أسماك.

يقـــول إن هذا ما يبرّر خضرة عينيه. وصل إلى هنا قبل ثلاث سنوات.

لا يقـــول شـــيئا عـــن أسباب قدومه إلى هنا أو عن حياته في الماضي. يقول إنها قصّة طويلة تتعذر روايتها.

يمكنك رواية جزء منها؟

لن يكون لذلك معنى.

هل لديك أطفال؟

لديّ خمسة أطفال.

أين هم؟

إنهم ثلاثة صبيان وبنتان.

هل رأيتهم مؤخّرا؟

يقيمون بعيدا و لم أرهم منذ سنوات.

هل يرسلون إليك الرسائل؟

أنا لا أجيد القراءة.

ربّما يقرأها لك شخص آخر؟

لن يكتبوا إلى شخص آخر.

إذاً، يكتبون لك؟

لا، فهم يعرفون أنني لا أجيد القراءة.

ألا تريد سماع أخبارهم؟

يتّصل بي أحدهم كلّ يوم أحد، وهم يتناوبون على ذلك، لذا أتحدّث إلى واحد منهم كلّ خمسة أسابيع. اشتروا لي هاتفا نقّالا لهذه الغاية.

أين هم الآن؟

يقيمون بعيدا عن هنا، وقريبا من هنا – يضع يده فوق قلبه – كلّ واحد منهم يعيش في مكان مختلف لكنهم يلتقون هُنا. يحرّك أصابع يده فوق قلبه.

لم أسأله عن زوجته لأنني شاهدت خاتمي زواج في يده، لذا فهو أرمل.

إنّ دوافع ثقتنا بالآخرين غريبة. أعرف القليل عن فد وهو مراوغ، لكنني أثق به كلياً. يبدو الأمر خاصيّة جسدية، شيئاً ما ذا صلة بالطريقة التي يسمع فيها جسده ما يقوله، وكأنّه يجد شيئاً ما في جسده قبل وضعه في كلمات.

رجعت في إحدى الليالي في وقت متأخّر، وذلك بعد تمضية أمسية في لعب الورق – لعبنا الكناستا السوداء لأربع مرات – كان فد على وشك مغادرة منزله للذهاب إلى العمل. وقفت وتبادلنا التحيّات. في تلك الأثناء، لمحت ثعلبا في الشارع، يقف منتظرا في الزاوية. أشرت بصمت باتجاه تلك الزاوية وابتسمت. لاحظ فد إشارتي، فالتفت ببطء إلى ذلك الاتجاه. ثم ضمّ ذراعيه وقال: إنه بانتظاري، غالباً ما نمشي معاً باتجاه الحواجز قبل أن يمضي كل منّا في طريقه، أنا إلى مشغلي وهو إلى مكبّ النفايات. هناك حياة أخرى في أثناء الليل. رأيت الإنارة في الصيدلية أثناء عملك في وقت متأخر، نحن لا نتحدّث عن ذلك، ولكننا نلاحظ ما يجري. هناك حياة أخرى مختلفة في أثناء الليل؛ مختلفة للغاية. هؤلاء الذين يعملون في الليل يتمسّكون بعمق بحياة الليل وبالآخرين

الـــذين يعملون مثلهم في أثناء الليل. الوقت في الليل أكثر حنانا، ما من شيء ننتظره، ولا شيء يبدو خارج الزمن.

الـــتفتَ مـــن جديد لينظر باتجاه الزاوية، ابتسم وانحنى لي انحناءة صغيرة.

نامـــي جـــيداً آنـــسة عايدة، أنت التي تزورين المرضى في كلّ الأوقات، نامي جيداً.

مي غوابو، ستتعرّف إلى فد فورا، فهو بالغ الطول. إذ يبلغ طوله متـــرين، وهـــو ويعرج أثناء المشي. بإمكانك التحدّث إليه عن الليالي الطوال.

الآن، ســـوف أحدّثك عن ضيفتك الثانية. ها هي تجلس خلف النافذة وتقشّر الفاصوليا. يبعد منـــزلها ستّة أمتار فقط. غالبا ما نتبادل الحديث. هذا المساء، يمكنها رؤيتي وأنا أكتب إليك. يعرف الجميع أنني لو كنت أكتب والورق فوق ركبتي، فهذا يعني أنني أكتب إليك. قبل ســـاعات قليلة، كانت آما تصلّي. لكنّها لا تصلّي بانتظام في كلّ يوم. بل تصلّي بحماسة لو غدرت بشخص ما، على أمل إبقاء علاقتها جيدة مـــع الآخـــرين! هل يعتبر هذا التصرّف سذاجة؟ ليس تماما. آما تعيش لـــيومها فقط. وتدفع أي شخص برفقتها إلى مشاركتها في ذلك، تماما مـــثل المشاركة في آخر كسرة خبز. عملها هو بيع السجائر المهرّبة في مواقـــف محطّـــات الحـــافلات. غرفتها ليست أوسع بكثير من غرفة ســـجنك، ولإحضار الماء لا بدّ لها من النـــزول إلى فناء المنـــزل. عند صعودها السلالم تحمل سلّة فوق رأسها، كانت قد استعملتها لالتقاط صورة لبطاقة معايدة حصلت مقابلها على مبلغ من المال.

تبتـــسم آمـــا للجميع، ليس بعينيها بل بفمها، وأما بكتفيها فهي قادرة على صدّ الرجال المسافة التي تريدها.

عـــندما نتحادث عبر نافذتينا، أو عندما نصعد إلى السطح لمراقبة غـــروب الـــشمس، تـــتوقّف عن الابتسام ويبدو الحزن على شفتيها، فتمسك بيديّ.

ســـوف تـــروي لك قصّة وفاها. وجدوها شبه غارقة في البحر. تقـــول إنهـــا شعرت وكأنّ البحر يبتلعها وكما لو أنّها سكرى! وأنّها كانت كمن ينـــزلق عبر قناة للثمالة، كان شعوراً لطيفاً ومجزياً ومريحاً للغاية، شعوراً بمذاق العسل! عمرها تسعة عشر عاماً.

عـــندما أمسك بإحدى رسائلك بين يدي، فأوّل ما أشعر به هو دفـــؤك. الـــدفء ذاتـــه الموجود في صوتك عندما تغنّي. أريد ضغط جـــسدي إلى رسالتك لكنني لا أفعل ذلك، لأنني لو انتظرت فسوف يحـــيطني الـــدفء من كلّ الجهات. عندما أعيد قراءة رسالتك، ويلفني دفؤك، أشعر أنّ الكلمات التي كتبتها تنتمي إلى ماض بعيد، وأنا وأنت ننظـــر معـــاً إليها. عندها، نحن في المستقبل، ليس ذلك المستقبل الذي نعرف قليلا عنه، بل المستقبل الذي ابتدأ. نحن في مستقبل يحمل اسمينا. أمسكْ بيدي. دعني أقبّل الندوب على معصمك.

لك دوماً،

عايدة

لا يمكنهم توقّع ما ننوي القيام به في المرحلة الآتية. لذا يفقدون أعصابهم. ليس بإمكانهم عبور منطقة الصمت التي ساقونا إلى داخلها كقطـــيع. منطقة يحدّها من جهتهم الضجيج البعيد لاتّهاماتهم المزيّفة، وتحدّها من جهتنا نوايانا النهائية الصامتة.

نور،

كـــان غــــسان في الماضي يعمل حلاقا، وكان مستمعا جيدا للآخرين. عاش في ضاحية *خربة الريح*. يملك بيتا صغيرا بناه بنفسه وهو في مقتبل عمره، أي قبل نحو ثلاثين سنة. تفرّغ آنذاك للبناء في عطل نهاية الأسبوع وفي أماسي الصيف الطويلة. استغرق بناؤه خمس ســـنوات. هـــناك، حـــول بيته توجد عدّة منازل تحوّلت اليوم إلى أنقاض. البرد قارس في فصل الشتاء، ولكنّ ذلك لم يتغير منذ قرون. فقـــد غـــسان زوجته في العام الماضي. ما تبقّى له اليوم هو شغفه بزراعة الزهور.

جاء إلى الصيدلية في الأسبوع الفائت. له طريقة حذرة في المشي مـــثل بعض الرجال المسنين - وهي نادرة بين النساء المسنّات - كأنه يحمـــل حوض ماء ممتلئاً ولا يريد أن يسقط. ربّما لو فكّرت في الأمر لوجدت أنّ مشيته تلك لها صلة باعتلال البروستات. جاء يحمل وصفة لدواء الهترين وهو من فئة الترازوسين. وبعدما انتهيت من شرح كيفيّة تناوله جرعة الدواء، دعاني لزيارته ولمشاهدة الزهور في يوم ما. مررت هذا الصباح بجوار منـــزله، لذا عرجت لزيارته. أراني أزهار السوسن، ذات الألـــوان النحاســـية، مع ما يشبه الكتابة بخط أسود على الوجه الداخلي للتويجات. هي الجملة ذاتها دائما. خفضت عيني إعجابا فقدّم لي زهرة. ثم قرأ لي شيئا كالتالي: زوجتي التي توشك على الرحيل، ترقد في الداخل، وهي تتهامس مع أجدادها، وكلمة *افتراق* تشبه قرداً تعساً، يتأرجح خلف النافذة من جهة إلى أخرى...

لم أجــب، لأنه كان يردّ على فكرة طرأت بباله وأدركها للتو. كان يقارن بين شعوره بالفقدان وشعوري. بينما كنت أقارن بين بيته الممتلــئ بالحــياة، والبيوت المدمرة حوله. كانت جميعها على الأغلب متماثلة بالحجم. فهي عبارة عن غرفتين، وطابق واحد، وثلاث عشرة زاويــة، وألف سرّ وسر. تبدو الأنقاض الآن أقل حجما. كان الراديو يــبث صــوت امرأة تغني، سيزاريا إيفورا. البيوت المدمّرة - على نحو معاكس - كانت صامتة. كأن صوت إيفورا احتواها تماماً.

دعاني إلى الدخول وتناول فنجان قهوة، وأوقف الراديو. قال وهو يرتــشف قهــوته إنّ هناك لحظات تبدو فيها زوجته وكأنّها لم تمت. لحظات تتزايد مع مرور الأيام. ولكن، كلّ يوم يبدأ بغيابها.

يخــتلف الأمر بالنسبة إليّ، فاليوم لا يبدأ بغيابك، بل يبدأ بقرارنا المشترك بالقيام بما نفعله الآن.

أتذكّــر المــرة الأولى التي راقبتك فيها وأنت تفحص آلة معطّلة، باحثا عن وسيلة لإصلاحها. كانت طابعة كمبيوتر. هل تذكر ما كنا نسعى لطباعته؟ مضى وقت طويل على ذلك.

كــنت تــرتدي قميــصا أبيض ذا كمين عريضين طويتهما إلى مــستوى الكــوع. كنّا في القبو، خلف السوق في أباديس. كان شعر ذراعك جعداً، وكأن كلّ شعرة على شكل دائرة. رفعت غطاء الطابعة وبدأت تدقّق في الوصلات الكهربائيّة.

في الــشارع الــرئيس في أبــاديس، كانــوا يقومون بشنّ غارة مستخدمين سيّارتين مصفّحتين. تابعت التدقيق بالوصلات الكهربائية، بمنهجــية سنتيمتر واحد بعد الآخر. كنت تحمل في يدك اليسرى مفكّ براغــيّ كهربائياً صغيراً مثل عصفور ذي عدّة مناقير. ومن حين لآخر كنت تطرق به. كنت أرى - من خلال حركة كتفيك - أنك لم تكن

تتابع مسار الأسلاك فقط، بل كنت تستشفّ مجرى تفكير مصمّم هذه الآلة وصانعها.

في ذلك الشارع الرئيس كانت تُطلَقُ عيارات نارية.

همستَ: دعينا نختبر هذا. استوعبت فجأة أن في الآلات التي يصنعها الإنسان مسارات خلاقّة، يمكن التواصل عبرها بين العقول. مثل التواصل عبر الشّعر. أدركت ذلك وأنا أنظر إلى كفّيك.

ما عرفت يوماً كلمات مطمئنة مثل يديك في تلك اللحظة. كنّا نسمع صراخهم وهم يصدرون أوامرهم عبر مكبّرات الصوت في الشارع الرئيس. نظرتَ إلى الأعلى، مباشرة إليّ، وأومأت برأسك. ثم غمزت بإحدى عينيك المحمرّتين.

لك دوماً،

عايدة

مـــرّت بـــــي الـــشاعرة الـــرائعة، بانغوشي، وهي من بلاد الأســـكيمو. بـــادرت بالحديث عن أشخاص عرفتهم في طفولتها، قالت: "لم يحاولوا بذل أي جهد ليكونوا جُمَلاء، كانوا صادقين فقط، لكنّ الجمال كان موجودا، لأنه عريق في نفوسهم".

نور،

في الجهـــة الأخرى من العالم، جاءوا يوم الأربعاء الفائت مع نهاية النهار. في ذلك الوقت، كان الناس يقولون لأنفسهم - بعد الانتهاء من يـــوم عمل آخر - ها قد انتهى العمل، ما من داع للعجلة الآن، هوّن عليك...

جـــاءوا للتفتـــيش والتحقيق وزرع الرعب. كانوا أكثر من أن نتمكّن من عدّهم. كلّ واحد منهم مدجّج ببندقيّة وبضع قنابل. شعرت أنـــني طاعـــنة في السن، فما زلت أستطيع تذكّر ذاك الزمن الذي كان الجـــنود فـــيه محـــاربين، وعندما كانت الأمهات، مهما اشتدّ قلقهنّ، يفتخرن بأبنائهن الجنود.

أنـــتَ هـــناك! أنت أيها السعدان القذر! هيّا تحرّك! أسرع. ماذا تنتظر؟

بيـــنما كـــنت أطيع وأراقب شعرت بقربـــي منك. قسّمونا إلى مجموعات؛ إلى رجال ونساء، ومسنّين ذوي خطورة محدودة وخطرين. كـــان تـــصنيفي بين مجموعة الخطرين، يسعدني قول ذلك. اقتادوا كلّ مجمـــوعة إلى جهـــة منفـــصلة. سأل بعض المسنّين لو كان بإمكانهم الجلوس. فأجابوهم: بعد استجوابكم، وليس قبل ذلك.

في كـــلّ أرجـــاء العـــالم، يقـــوم جنود مرتدون بزّات رسمية، ومدجّجون بالأسلحة، ويتلقّون أوامر عليا، بأعمال ضد مدنيين معتقلين وعزّل، محاصرين ومعزولين إلى حين. هذه هي المهنة العسكرية الحديثة. بالطبع حدث ذلك دوماً. ولكن في الماضي لم يكن منتظما.

ثمّة عملية تحويل للجنود بحيث يصبحون وحوشاً. المرأة المسنّة - التي تعرفها - تتذكّر أسخيليوس.

أرسلوا رجالاً إلى ساحة المعركة
مثل أولئك الرجال لم يعودوا
وبيوت أعدت لاستقبالهم
استقبلت رماداً في جرّة...
مجّدوه بدموعهم وقالوا:
"كان جندياً" أو "مات بشرف،
بينما يصرخ الموت من كلّ الجهات!".

الأوامر العسكرية القديمة مثل *التقدّم* أو *الانسحاب* أو *توفير تغطية نارية* أصبحت بالية الآن، فلم تعد هناك جبهة قتال أمامية، أو جيش معاد يحارب وجهاً لوجه.

لا أحد سيقول عن أنّ أي واحد من أولئك الوحوش إنّه مات بنبالة.

ولو تعرّض أحد منهم للقتل، فسيحدّ المقربون منه عليه، ولكنهم سيلتزمون الصمت حول ظروف قتله ولن يقولوا شيئاً.

الكلمة الوحيدة المسموعة يوم الأربعاء كانت تلك الصادرة عن فوهة البندقية، والموجّهة إلى أناس يركعون على ركبهم.

الأفضل اختيار ساعة الموت عوضاً عن قبول هذه الإهانة.

نحن نعرف بعضنا. نحن نعرف بعضنا منذ بداية تاريخ مدينة كروكوديلوبوليس.

رسالة غير مرسلة

مي غوابو،

وصلتْ إلى هنا يوم الأربعاء الفائت، ماندا الضخمة؛ معلّمة الموسيقى. جاءت من دون إشعار مسبق. بدت متألّقة لدى دخولها الصيدلية، وذراعاها يرفرفان مثل طائر السلوى حين يشرع في التحليق.

في بداية صداقتنا أنقذتني من اليأس الذي يعتري كلّ سجين في أوّل مرّة. لم أكن قد بلغت الثامنة عشرة بعد. كنت قد رويت لك تلك القصّة. لكنني بعد رؤيتها اليوم، أريد أن أخبرك القصّة من جديد. كلّ أنواع الحب تعشق التكرار، لأنّها تتحدّى الزمن. كما نفعل، أنا وأنت.

في سجن لماسغاو فُرضت علينا ستّ ساعات من العمل الإجباري في خياطة البزّات الرسميّة. في صباح أول يوم عمل لي، اختارت ماندا الجلوس في المكان الفارغ قربي. رأيتها تقترب مني وكأنها حافلة مليئة بالركاب نجحت في اجتياز سلسلة جبال السييرا، وجميع المسافرين الذين تعارفوا في أثناء تلك الرحلة الطويلة، يتضاحكون داخل الحافلة.

يبدو مظهركِ كما لو أنّك تريدين أن تسوء الأحوال! كان هذا أول شيء قالته لي. أومأتُ برأسي. ثم تابعتْ: إنها تسوء فعلا، تكفي منك دفعة إضافية، أعرف صعوبتها، ولكن يمكنك القيام بها، دفعة واحدة أخرى فقط وستكونين في أسفل الحضيض. هناك! ها قد نجحت في ذلك!

عندما تبتسم ماندا، تظهر تجاعيد وجهها العميقة وكأنّ مطراً غزيراً حفرها هناك. ابتسمت في تلك اللحظة، ممسكة بيدها إبرة الخياطة الكبيرة عالياً في الهواء، بينما تشبّع وجهها بابتسامة.

متى عيد ميلادك؟ سألتني في صباح اليوم التالي وهي تخيط بطانة معطف. أجبتها، لأنني أردت أن أستقلّ حافلتها. كان لي مقعد هناك.

لم تتغيّر كثيراً. شعرها الكثّ ما زال مصبوغاً بالأسود، وما زالت تهزّه بالطريقة ذاتها، وما زال بؤبؤا عينيها الداكنتين يتبدّلان بطريقة دراماتيكية وفقا لما تسمعه. الجديد هو أنّها تعلّمت العزف على العود.

لست متأكّدة من التفاصيل. تدّعي أن عزف العود يوفّر لها فرصة الدخول إلى أمكنة معينة، إلى بعض المؤسسات، وبعض اللجان، وربما بعض البنايات. لذا باشرت دروس العزف.

تقول إن العود لا يشبه أي آلة أخرى. ما إن تعانقي العود حتى يصبح رجلاً! أنت تعزفين على رجل، تشعرين بذلك فورا. تنقرين الأوتار - سبع نقرات، ثلاث عشرة نقرة أو إحدى وعشرين نقرة حسب ذوقك - وكأنك تنقرين أوتار صدره، أو عنقه، أو كتفيه. موسيقى العود ذكورية. ذكورية. تتذكّرين جميع الرجال الذين عزفت عليهم.

تقلّد بذراعيها البدينتين حركات العزف على آلة نفخ، وتصدر صوتاً مشابهاً لصوت البوق، أو إخفاء آلة نفخ في فمها، والتشبّه بكمنجة. ثم تتابع حديثها: هناك نوع من السلاحف من دون قوقعة. اسمها عود، لأنها جميلة ولها شكل الآلة الموسيقية! ولكن من يرغب في العزف على سلحفاة حين يستطيع العزف على رجل؟

مع العود مرتكزا على ركبتيك، يمكنك أن تعزفي أول لحن في الوجود. تصمت فجأة، ونبدأ بالضحك. نضحك ونضحك حتى انتهاء الضحك.

ثم تلتفت نحوي، بعينيها الصغيرتين، لتهمس: في غضون ستّة أشهر ستكونين وكزافيه معاً. لا تسأليني أين، لا تسأليني كيف؟ كلّ ما أعرفه هو أنّكما ستكونان معاً.

بقـــيت معـــي لـــثلاث ليالٍ، ونمت أنا على المقعد. غادرت هذا الـــصباح مـــتوجّهة إلى مـــيرار. دعوت مساء أمس بعض الأصدقاء، وأعـــددت العـــشاء. روت لنا حكايات ثم تحدّثت عن الأسماء، أسماء الناس.

قالـــت: في الـــبدء كان هناك اسمان لا أكثر، اسم للنساء واسم للرجال. ومن الاثنين، تفرّعت سريعا، أسماء أخرى، كانت تنوّعات أو تحوّلات مشتقّة من الاسمين الأولين. ومع مضي الزمن، أصبحت الأسماء التي نطلقها على الناس في كل أنحاء العالم، أكثر تعقيداً وأكثر تبايناً، إلى أن وصـــلت معظمها إلى عدم تعرّف الواحد على الآخر. ولكن أسماء الناس، ليست كالكلمات الأخرى، مهما بدت غريبة الوقع على الأذن أو غـــير مألـــوفة، لأن لها عندما نسمعها أو نلفظها، صوتاً مشتركاً. الصوت المشترك ليس في المقاطع اللفظية، ليس عايدة، ولا "كريم" ولا شاسنو. ليس إيبارا. الصوت شيء ما يحيط بالأسماء.

أغمضت ماندا عينيها واستمرت في الحديث. ينبع الصوت، كما أعـــتقد، من تسارع حركته. التسارع مثل الاسم، أليس كذلك؟ كلّ أسماء العالم تندفع سريعا، بسرعة الضوء لكي تتلاقى عند نقطة أصولها، وإلا فهـــي تـــتقدّم بـــسرعة الضوء حتى تنحلّ إلى جزيئات أصغر من الفوتـــونات الكهرومغناطيسية... لا أعرف أيا منها، ولكن ذلك ليس مهمـــاً. المهم هو أن الأسماء ليست مثل الكلمات الأخرى. لذا، أتعلّم عزف العود.

آه! معلمة الموسيقى!

من اسمي إلى اسمك!

من عايدة إلى كزافيه.

"بعد نحو 200 عام يمكننا القول إن الولايات المتحدة الأمريكية قـــد خطّطـــت لملء العالم بأسره بالفقر؛ بينما تُطلق على ذلك اسم *الحـــرّية*. إن إمبراطورية الولايات المتحدة الأمريكية هي أكبر خطر قائم يهدد العالم اليوم...".

شافيز، موسكو 27-07-2006

مي سوبليته،

أرى مـــن خلال النافذة، على مسافة بعيدة، وفي الجهة الأخرى لمنـــــزل ديمتري، كلبا يمضي ببطء ويشمّ الأرض. يبدو مثلي؛ يبحث عـــن شـــيء مـــا ولا يعرفه. لنقل إنه يبحث عن قصد - كل حواسه متـــيقّظة - عـــن مفاجـــأة ما. وأنا أبحث عن كلمات لأعبّر لك عن شعوري نحوك.

أحـــد الأشياء اللطيفة التي يمكن أن تقدّمها امرأة لرجل هو سقف ذو انحناءات. لا تضحك، فسقوف معابد الباغودا ذات انحناءات تبدو أنثوية.

مـــا إن تعـــيش امرأة في غرفة ما، حتى يتقوّس سقفها. ألم تلحظ ذلـــك؟ إذا شعرتْ بالبؤس وهي في الغرفة، يصبح السقف متهدّلا مثل كمّ ثوب ممزق. وإذا كانت سعيدة يترامى السقف كتلال الجليل ويمتد. مـــن أجل بلوغ هذه الحالة، لا يكفي أن تزور امرأة غرفة ما، بل لا بدّ مـــن أن تقـــيم فيها. إنها ظاهرة كالطقس، لا بدّ من استمرارها لعدّة أشهر.

لـــو اســـتمرت الظاهرة لعدة أشهر، فكأن الأعاصير ومضاداتها تتلاقـــى في الـــسقف وتجعله ينتفخ، وكما لو أنّ علم التناسق الهندسي ذهب ليلعب النرد و لم يعد. ليست هناك زوايا حادّة، بل منحدرات.

يـــستلقي رجـــل على أرض تلك الغرفة، وعوضا عن أن يكون الـــسقف فـــوقه يـــأتي ليجلس إلى جانبه؛ يطابق جسده. استلقِ على سريرك. وسأرسل لك سقفاً مقوساً.

قـــدتُ السيارة إلى ميرار، حيث تعودّنا الذهاب لتناول الطعام في عيد ميلادك. اتّبعت الدرب ذاته.

الـــشمس منخفضة في السماء. الشمس قصيرة النظر. لا تكتشف بدقّة ما يتغير. انحناءات الأرض النازلة من الجبال تبقى كما هي. تعرفها الـــشمس جـــيداً. (الجو جاف، و لم تمطر منذ شهرين). ما إن تتساوى المنحدرات قليلا، حتّى تظهر صفوف المنازل والأكواخ البسيطة. تحدث هـــنا تغـــييرات طفيفة على مدار كلّ الساعات، من دون أن تلحظها الشمس.

تتلاصـــق الأكـــواخ قرب بعضها، أبوابها مشرّعة، تتحدّث عن المعانـــاة اليوميّة، عن آخر المتوفين، عن من أصبحت حاملاً، ومن أين يمكن جلب الماء هذا المساء. ألف بيت، لكلّ منها أسراره المفاجئة.

عـــزلوك ووضـــعوك حـــيث أنت الآن، ليبعدوك عن كلّ هذه الأســـرار. لذا، سأرسلها إليك مع غروب الشمس. لا يمكنهم قراءتها، ولكن أنت قادر على تفكيكها، وكذلك...

لك دوماً،

عايدة

ملاحظة: انظر إلى السقف.

لا يمكــن مهاجمــة العــدو مباشرة. ولا يمكن اختراقه في حال مواجهته وجهاً لوجه. الصراع معه وجهاً لوجه يعني اعتباره منتصراً. ولكــي يــستمرّ كمنتــصر يحتاج العدو إلى جبهات مواجهة أمامية جديدة. إنها غير موجودة، لذا يخترعها العدو. نحن ننتظر تلك الفرص لشنّ مواجهات جانبية عديدة. تلك هي استراتيجية المقاومة.

قبل بضعة أيام، في المساء، كنت أعبر حي *خربة الريح* عند الساعة الثانية فجرا. كنت في طريقي لإعطاء سيّدة أجهضت وتعاني من نزف شديد (شارع الفوريك المؤدي إلى المستشفى كان مغلقا) حقنة (أسيد ترانكساميك، غرامان ونصف). عمر الجنين أربعة أشهر. إنه صبي. وأما مريم، الأم فبدت منهكة مثل مدينة نال منها القصف.

في طريق عودتي التقيت فد الذي كان يجمع "خردوات" معدنية في عربته. بادرني الحديث حول تقنيّات استخراج العسل من قرص العسل. انقضى وقت الزهور وحان وقت جمع العسل من خلايا النحل، ربّما لذلك بادر بالحديث عن الموضوع. قال ليست هناك طريقة مثالية، لأن الكمال بغيض دوما. ما نحبّه هو التغيّرات.

ثم نظر إلى الأعلى نحو سماء الليل، فتفحّصت وجهه المرهق وسط الصمت المتسلل. عمره بعمر والدي لو كان قد بقي حياً. كرّر: التغيّرات!

بعد مغادرتي بالسيارة فكّرت بالندوب فوق معصمك الأيمن؛ ندوب الحروق. تغيّرات. كانت أولى العلامات المميّزة التي لاحظتها في جسدك. مصطلح "علامات مميّزة" غريب، أليس كذلك؟ هم متميّزون في إعداد ملفّات الشرطة وأساليب التعذيب.

للعيون أربع أو خمس صفات رسمية: بنية، زرقاء، عسلية، خضراء! لون عينيك هو كزافيه.

في رسالتك الأخيرة قلت إن جيمس قام بتنظيم دورة لتعليم الرياضيات بمشاركة اثني عشر فرداً منكم. انتظر لحظة، لأنني أريد

العـــثور علـــى اقتباس أعتقد أنه في دفتر ملاحظات أحتفظ به منذ أيام دراسة علم الصيدلة في تارسا.

اســـتغرقني العـــثور عليه ساعتين، ها هو. يعود إلى نحو ألفي سنة مضت.

هناك صفات مشتركة بين الأشياء كافة، ومعرفة هذه الحقيقة تنير العقـــل للاطّلاع على أعظم عجائب الطبيعة. الصفة الأساسية تشتمل وجـــود ثنائيتين لامتناهيتين في الأشياء كافة، ضخامة لامتناهية وضآلة لامتناهـــية... وبما أن الطبيعة نقشت صورها وصور أصولها على كل شيء، فكلّ الأشياء تتشارك مع الطبيعة في هذه الثنائية اللامتناهية.

أرى الندوب على معصمك. أفكّر في السنوات التي مضت. أفكّر في كـــلّ أخطائـــي وتغيّراتي، أيّها الأحب إليك؟ قل لي، قل لي ببطء وهدوء لكي نستمتع بها معاً خلال الليل الطويل!

عايدة

كاسندرا ويلسن على الراديو:

"أريد رؤيتك فقط
عند غروب الشمس.
بكلّ بساطة
أريد أن أراك عندما تغرب الشمس
لا شيء أكثر من ذلك".

مي غوابو،

ذهبتُ لزيارة والدتك. لو أخذنا بعين الاعتبار الظروف كافة، فهي ليست في وضع سيّئ. عندما تخطو نحو البوابة الأمامية ينتابك شعور وكأنّك تقبّلها مباشرة على فمها.

المطبخ في غاية النظافة، والستائر مغلقة في غرفة النوم لحفظ البرودة. طلبت مني قراءة رسالة وصلتها من أخيك في كوفاس بصوت عال. قالت إن جهل الكتابة أو القراءة في أثناء طفولتها، لم يكن أمرا ذا أهمّية، لأن الناس كانوا يناقشون كلّ ما يعنيهم أو يثير اهتمامهم. لكن، اليوم تحدث أمور عديدة في صمت، ولا بدّ من معرفة القراءة من أجل الاطلاع على قرارات الناس.

قرأتُ الرسالة بصوت مسموع. يبدو أنه نجح في إقامة بعض الصداقات وجمع المال في كوفاس. وحتّى لو لم ينجح لكتب أيضاً الكلمات ذاتها. يبدو أنه بعد بلوغ الرجال عمرا معينا فغالباً ما يعاملون أمهاتهم وكأنهن طفل أو طفلة، وهم مخطئون في ذلك. فالأمهات سواء أكنّ متعلّمات أم أمّيات يمكنهن استيعاب الأحداث كافة.

احتسينا الشاي الأخضر وتحدّثنا عنك.

هل فقد الكثير من وزنه؟

لم أرَه يا أمي.

تقول: إنه بخير، لو لم يكن بخير، لكنت شعرت بذلك.

تذهب إلى غرفة النوم. أسمع تنفّسها الثقيل. تعود إلى المطبخ حاملة شيئاً ما مغلفاً في ورق شفاف بلون السيكلاما. تمدّه إليّ لأفتح المغلف.

أفتحه ببطء. إنه خاتم ذو حجر لازوردي. تنتمي الأحجار اللازوردية إلى مجمـــوعة السيليكت. ولو رغبت مي غوابو، لذكرتُ لك التركيبة الكيميائية! $(AlSiO_4)_6$، $(Na, Ca)_8$، $(SO_4, S, Cl)_2$.

هل تتوهّج الأحجار الكريمة التي تمتلكها النساء المسنّات أكثر من تلك التي تعود إلى سائر النساء؟ ربّما. كأن المجوهرات التي تقلّدها منذ كـــنّ صغيرات تحتفظ بتوهّج الصبا. مثل توهّج بعض الأزهار مباشرة بعد غروب الشمس.

في المطـــبخ، أرى خاتم أمك الأزرق اللازوردي وهو يتوهّج على كفّ يدي.

قلت: احتفظي به لي.

قالت: كزافيه يرغب في أن أقدّمه إليك اليوم.

أذكّرها بأنهم لم يوافقوا على طلب الزواج.

تلتقط الخاتم، وتضعه في بنصر يدي اليسرى. وأقوم بحركة وكأنني أداعب رأس كلب.

تحـــبس أنفاســـها، وكأنّها تتذكّر عبر السكون جسدها، وكيف قامت بحركة اليد ذاتها وهي تلبس الخاتم ذاته في يدها قبل خمسين عاما.

عايدة

كيف نقول الحقيقة؟ كلمات معذبة إلى أن تستسلم إلى أقطابها المعاكسة. إنّ كلمات: *ديمقراطية*، *وحرّية*، *وتقدّم* عندما تعاد إلى سجونها تصبح مفكّكة وغير مترابطة. هناك أيضا كلمات أخرى: *استعمار*، *ورأسمالية*، *وعبودية*، ليس لها حق الوجود، وتعاد مرفوضة عند كل نقطة حدود. أوراقها المصادرة تُعطى إلى مدّعين ومخادعين يحولونها إلى: *عولمة*، *وأسواق التبادل الحرة*، *والنظام الطبيعي*.

الحلّ: لغة الفقير في المساء. عندها، يمكن رواية بعض الحقائق والالتزام بها.

أسدي على الأرض،

نعـــرف كلانـــا أنّ اســـتلام الرسائل الإلكترونية، وإرسالها غير مـــسموح به لسجناء العزل الانفرادي، لكنّ ذلك لا يعيقني عن الكتابة إليك.

ســـوف تقـــرأ رسالتي هذه في يوم ما، وعندما يسجنونك في العزل الانفرادي في مرّة قادمة، أريدك أن تتذكّر روايتي هذه، عندما حاصـــرونا يوماً في محاولة لاختزالنا إلى لا شيء. ولكي تعيد رواية القـــصّة لنفسك مجدّداً وأنت داخل الزنـــزانة التي لا تتجاوز متري مربّع.

كنتُ آنذاك في الرابعة والعشرين من عمري، وكنّا معاً في مدينة فاز، كان الفصل ربيعاً. وقد التقينا للمرة الأولى منذ تسعة أشهر.

اســـتيقظتَ باكراً - أتذكّر أننا نمنا تلك الليلة في غرفة في الطابق الأرضـــي، تطلّ نافذتها على حديقة زهرة الآلام - وهمست لي: دعينا نخرج لنتمشّى. ثم طلبت أن أرتدي بنطال الجينـــز! كنت على وشك الاعتراض، لكنني تراجعت لأنني شعرت أنك تخطّط لأمر ما. ابتسامتك وشت لي بذلك.

أعددنا القهوة وارتشفناها على مهل، ثم مشينا باتجاه شمال المدينة عـــبر شـــارع مكـــتظّ بالعديد من أهل القرى الذين وصلوا بعرباتهم وبالـــشاحنات من أجل التسوّق. هناك مدرسة في تلك الضاحية، كان الـــوقت علـــى الأرجح في أثناء استراحة منتصف الصباح لأن مئات الأطفـــال كانـــوا يتسكّعون في ساحة المدرسة. فجأة طارت كرة في

الهـــواء، وعـــبرتْ الـــشارع باتجاهنا، وركضت أنت بضع خطوات لالـــتقاطها! قطّبنا وجهينا للحظة، ثم سمعنا صفير مجموعة من الصبيان، أحدهم كان يلوّح بيديه. أمسكتَ بالكرة وقمت ببضع وثبات بها على الطريق، ثمّ قمت بضربة دفعتَ بها الكرة عالياً فوق السيارات، وأعدتها إلـــيهم! فرحوا ولوّحوا بأيديهم مرة أخرى. وعوضاً عن متابعة اللعب، رمـــوا الكرة من جديد وبهدف محدّد، لإعادتها إليك. التقطتها برشاقة كما في المرّة السابقة وأعدّت رميها وأنت تضحك. مزيد من الانتشاء. ثم سمعـــنا صـــراخهم غول! غول! عبرتُ الشارع بسرعة، والكرة بين يـــديّ، وعـــندما وصلت إلى حافة العشب في الناحية الأخرى، حيث كانـــت معزاتان مقيّدتان إلى وتد ترعيان بين العشب، انتظرتُ هناك، وأنـــا واقفة وجهاً لوجه أمام الصبيان، لأرى ما قد يحدث. ابتهاجات جديـــدة. دفع صبيّان عمداً صبياً ثالثاً ليركض باتجاهي، فسقط قربـــي علـــى ركبتـــيه – مزيد من الضحك – ثم مدّ يديه ليأخذ الكرة مني. كانت الكرة زرقاء وبيضاء وبالية.

عندما عدت، أمسكتَ بيديّ وصفّقت بهما.

مـــشينا مسافة كيلومتر آخر ثم وصلنا إلى أرض مطار. كان هناك مـــستودعان. ثلاث طائرات مروحية فوق العشب. مدرّج معبّد بطول ملعبـــي كرة قدم. عندها أدركت أننا على وشك الطيران!

هـــذه هـــي روايـــتي. روايتك لن تكون مماثلة. كنت أنت ربّان الطائرة. بالنسبة إليّ كلّ شيء كان يحدث للمرة الأولى؛ كما في شهر العسل.

دخلـــنا مكتـــباً وتحدّثت إلى صديق لك. شربنا الشاي. قبل عدّة ســـنوات كنـــتما تتعلّمان الطيران معاً. قلت له إنّك في بعض الأحيان تفتقد إلى تلك الأيام.

ثمّ التفتّ نحوي وقلت: اخرجي كلّ ما في جيوبك، لا نريد أن يسقط شيء ما. ناولتك مشطي، ومفاتيحي، ونرد الطاولة الذي كنّا نلعب به في بعض الأماكن كلّما كنّا مضطرّين إلى الانتظار لفترة لا نهاية لها.

عندما يصادرون في المرّة القادمة كلّ شيء بحوزتك، وقبل حشرك في السجن، أريدك أن تردّد لنفسك يا أسدي فوق الأرض كيف حلّقنا في الطائرة المروحية الكاب 10. استمعْ الآن إلى صوتي يروي ما حدث. عندها ستكون روايتانا متشابهتين.

أوثقتَ مظلّة هبوط على ظهري. كنتَ تعدّل طول أشرطة المظلة لتلائم حبيبتك. وتلفّها، ثم تبدّل اتّجاهها، ثم تحكم إغلاق المشابك. ربّما لا يختلف الأمر عن فكّ أزرار ما يرتديه الحبيب ثم خلع ثيابه. كلاهما يتطلّب انتباها مشابها قبل الحقائق الصارمة.

قلتَ: لا ينبغي شدّ الحزام بقوّة حول القلب، لأن القلب يحتاج إلى حرّية، ولكن يمكن شدّ الحزام بإحكام بين الساقين. فهمت آنذاك مغزى طلبك إليّ أن أرتدي بنطال الجينز.

ثمّ تابعت: لا شيء في العالم أسهل من فتح المظلّة، ولكن انتظري ريثما تخرجين من الطائرة!

كلمة طائرة دفعتني إلى الضحك لأنها بدت مثل كلمة مدرّب طيران، ثم فجأة - وهذا أمرٌ لم أفعله سابقاً - تخيّلتك طالباً صغيراً!

قلتَ: اسحبي بيدك اليمنى الحلقة الموجودة أمام كتفك اليسرى، اسحبيها إلى الجانب الآخر من جسدك وسوف تنفتح المظلة. لن تحتاج إلى فتحها ولكن من الغباء حمل مظلة على ظهرك من دون معرفة طريقة فتحها.

كلمة فتح المظلة كانت مثل كلمة طائرة. تخيلتك طالبا يقوم بتسجيل بعض الملاحظات وبدقّة. قلتُ مازحة: سوف أنتظرك!

ثــبّت مظلتك فوق ظهرك، ثم سرنا أنا وأنت، فوق العشب نحو مــستودع الطائرات. كانت هناك طائرة الكاب 10ب. قلتَ: ادفعيها إلى الخـــارج، ودفعناها معاً. كنت أتوقّع رؤية طائرة صغيرة، ولكن لم تكــن لديّ أدنى فكرة كم هي خفيفة الوزن. تزن طائرة الأباتشي عدة أطنان، بينما تزن طائرة الكاب - كما قدّرت - نحو خمس وثلاثين مرة وزن المظلــتين اللتين نحملهما فوق ظهرينا. هذه الخفّة المذهلة للطائرة ولحي صورة وجهك يوم كنت تلميذاً جعلاني أشعر بالطيش فجأة. لا شيء آخر له معنى في تلك اللحظة.

قلتَ: اصعدي فوق الجناح يا ملاكي، وليس فوق طرف الجناح الــرافع. اصعدي هنا، فوق الجناح، بقدميك وأنت ممسكة بالمقبض في أعلى زجاج المقصورة، ثم أخفضي جسدك قليلاً كي تدخلي مقصورة القــيادة، دعــي عجزك يسترخي فوق المقعد، ولا تجلسي على حافته. سوف ألحق بك خلال دقيقة. وذهبتَ لفحص مستوى البنــزين بعصاه خاصة. ثم اختفيت عن أنظاري، وتوقّعتُ أنك تتفحص العجلات تحت بدن الطائرة. أمسكتَ بحافة كلّ جناح وحرّكت شفرات الأجنحة إلى الأعلى والأسفل، لكي يتحرّك ذراعا الجناحين المثبتين إلى المقصورة إلى الشمال، اليمين، الشمال، اليمين.

قُمــت بكل شيء ببطء بالغ. فكّرت وأنا أراقبك في خيّال يرفع قوائم حصانه ليفحص حوافره قبل امتطاء الحصان للقيام برحلة طويلة. أنت تعرفني، فأنا لا أجيد شيئاً، كأنني من أعماق الغابة! باغتّني فجأة، لأنك نقرت على بدن طائرة الكاب بأطراف أصابعك وأظفارك، كما لو أن الطائرة مغطاة بمعطف!

صــعدت إلى جانبــي، وربطت أحزمة المقعدين. شرحت لي أنها طائرة ذات جهاز تحكّم ثنائي ومخصّصة لتدريب الطيارين. قلت: يجلس

الطالــب إلى جهــة الشمال دائماً. حيث جلست أنا. قلت: مقصورة الكاب 10 يا حبيبتي أصغر من غرفة السجن.

أوصلتَ القابس الكهربائي لسمّاعات الرأس، وفحصت الراديو. اســتمعتُ إلى صــوتك. لم يصلني صوتك وأنت جالسٌ قربــي، بل سمعــت صــوتك وكأنه خارج من رأسي. سألتني: قولي شيئاً ما لأنني أفحص السمّاعات، قولي شيئاً ما! قلتُ: لم أكن أعرف مقدرتك على رمي الكرة! قلتَ في رأسي: إنه حسن الحظ.

نهــضتَ، وســحبت السقف الزجاجي إلى الأمام فوق رأسينا. أحكمــت إغلاقــه. كم من الأغاني كُتبت حول خطف محبوبة على صــهوة حــصان؟ لم تكن أي منها مثل رحلتنا. شرحت لي عن نظام عمــل الــساعات، وعــن دورات المحــرك بالدقائق، والكيلومترات بالــساعات، وقياس الارتفاع، ومؤشري مستوى الدوران والانعطاف، والبوصلة.

هــل من أحد أمامنا؟ هذا سؤال تقليدي. أعطى رجل واقف علــى العــشب، ويــضع سماعات على رأسه، إشارةً برفع إبهامه. تفحّــصت موجّه الانعطاف الخلفي بقدميك، مثل أوزة تتهادى، ثم أدرت المحرّك.

امتلأتْ المقصورة بصوت المحرك، كان شبيهاً بهدير البحر ما عدا الاهتزاز الناتج عنه.

كنتُ أتشبّث بك بقوة، ليس بساعديّ، لأنه لم يكن جسدك ما أتــشبّث به، فكلانا كان يجلس بارتياح وهدوء على مقعده، ما كنت أحــدّق إليه هو نواياك الخاصّة. لم أتمكّن من تحديدها لأنني لا أعرف شــيئاً عــن الطيران، لكن نواياك أياً كانت، بدت لي أليفة للغاية، ولا يمكن فصلها عن حبّي لك.

درّجنا الطائرة حتى نهاية المدرّج. 1200 دورة في الدقيقة ثم 2000 دورة. رفعت يدك اليسرى عن المقود ولمست ركبتي اليمنى، ثم أعدت يـــدك إلى المقـــود، ودفعت صمّام المحرّك إلى الأمام بيدك اليمنى، ارتفع طـــرف كمّ قميصك، ورأيت الندوب، وبدأ المدرّج بالانـــزلاق نحونا ومن تحتنا، ببطء ثم بسرعة.

لم أشـــعر بلحظـــة ارتفاعنا عن الأرض. أنت شعرت بذلك. في لحظة معينة بدا المدرج هادئاً ومتراجعا. كنّا نحلق على ارتفاع مترين أو خمسة أمتار فوق الأرض. لم أستطع تحديد مستوى العلو. ما سجّلته هو فقـــط مدى حرّيتنا، وحركة *الجُنيحات* كما علّمتني أن أسمّي شفرات الأجنحة.

كانت أرض المطار تبدو بعيدة خلفنا عندما أدرت مقود التحكّم بالارتفـــاع قليلاً إلى الخلف، وضغطت على دوّاسة الوقود، فارتفعت الكاب عالياً، مخلّفة كلّ شيء تحتنا.

لم يكـــن شعورنا كما لو أنّنا محمولان أو مشدودان إلى الأعلى، ألـــيس كذلك؟ إنه شعور بالنمو، وبالنضج. عندما نتذكّر شخصا ما ينـــبعث مـــن النسيان، لربما يشعر مثلنا الآن. بعد دقيقة كنّا نحلق على العلو المقصود.

قلتَ لي: يمكنك تولي القيادة الآن، اقصدي مجموعة السُحب التي تبدو مثل قطّ. نعم، تلك السحابة، ليكن هدفك أعلاها، وحافظي على الارتفاع ذاته. نحن على ارتفاع 1500 قدم.

ألقـــيتُ نظـــرة خاطفة إلى الأسفل من جهة الشمال. ما زالت البـــيوت، وعربات الشحن، وشوارع القرى، والتلال، والأشجار تبدو واضـــحة. لو كنتُ أعرف أسماءها لكنت سمّيتها واحداً واحداً. فكّرت بقنابل النابالم والارتفاع وما يقصفونه بها.

همس صوتكَ في رأسي: انعطفي قليلاً إلى اليمين. حرّكت المقود فارتفعت الطائرة أكثر مما توقّعت.

قلتَ ضاحكاً: نسيت استعمال قدمك اليمنى.

قلتُ: لا أريد التعلّم، أريد الاستمتاع بالطيران مثل رئيس جمهورية!

قلتَ: لا بأس. وارتفعنا 500 قدم أخرى. أصبحنا خارج مدى القدرة على إقناع الآخر. كنّا بمفردنا.

همست في رأسي: سوف نقوم بالتفاف بطيء، لن نغير اتّجاهنا، سوف نحافظ على الارتفاع نفسه ونلتف 360 درجة، مثل برغي. هل أنت جاهزة؟

هززتُ برأسي. تابعنا الطيران. كنت تنتظر. أحبّ طريقة انتظارك. أحبّ طريقة اختيارك للّحظات. حلّقت فوقنا طائرة نفاثة متوجهة شرقاً، مخلّفة وراءها خطاً من دخان أبيض، بدا شبه شفاف مقارنة بزرقة السماء، ومختلفاً عن بياض مجموعة السحب التي بدت وكأنها دائمة.

قل لي إذا كنت مخطئة، يبدو لي أنه بعد رحلة طيراننا فوق فاز، لم تكن أمامك فرصة أخرى للتحليق؟ أعرف عن السنوات الأخيرة. ولكن ماذا بشأن السنوات التي سبقتها؟ كانت آخر رحلة طيران لك وأول رحلة طيران لي.

عندما حانت اللحظة المناسبة، اتّخذت قرارك. كنت أراقبك. حرّكت المقود؛ قليلا إلى الأمام وبدقّة نحو اليسار. فجأة، بوقت سمح لي فقط بلعق شفتي، انعطفنا إلى الأعلى أكثر فأكثر إلى أن أصبح الجناح من جهتي مشيراً إلى الأعلى مثل صارية مركب. بعد ذلك لم يكن بمقدوري استيعاب شيء. تماوجت الأرض والسماء وانفتحتا مثل علم

فـــوق صارية مركب، واختفى الزمن. عندما لا يعود للارتفاع وجود، يتوقّف الوقت أيضا أليس كذلك؟

كنّا ندور معاً. هذا كلّ ما عرفته. كنّا في كبسولة وندور معاً.

كم دامت تلك الدورة؟ هل دامت ثواني، دقيقة، أم مدى الحياة؟ لا أعرف.

أصـــبحت مقدّمة الكاب 10، من جديد، موازية للأفق وبعرض ثلاث أصابع تحته. شرحت لي أن عرض الأصابع الثلاث، يدلّ على أننا نحلق تقريبا على الارتفاع المقصود. نظرتُ إليك، كنت تبتسم. وضعت يدي على ركبتك. تابعنا التحليق. لا شيء سوى صوت المحرّك. المحرّك الصغير بقوة دراجة نارية كبيرة فقط.

همـــس صوتكَ في رأسي: مرة ثانية؟ قلت: لم لا؟ انعطفت هذه المـــرة إلى اليـــسار، وانخفض الجناح من ناحيتي إلى الأسفل تدريجيا. لم أتفاجـــأ هـــذه المرة كما في المرة السابقة. كنت أستطيع الشعور بما في داخـــل جـــسدي، شـــعرت بأعضائي تنقلب وتتصادم. لم تكن تلك الأعـــضاء كما في كتاب علم التشريح، كل منها ذو شكل أنيق واسم محـــدد: كـــبد، قلـــب، رحم، غدة فوق الكظرية، مثانة. لا، كانت تتكشّف، تختلط، تتشابك أصابعها! وكانت كلّها أنا!

أثـــناء التفافـــنا هذه المرة، اختفت المقاييس. الأعضاء العاملة في جـــسدي، وأنـــا أجلـــس إلى جانبك، أصبحت بمثل حجم الغابات، والتلال، والدلتا التي شاهدتها في الأسفل في الجهة اليمنى.

كـــنتَ تركّـــز على وجهتنا، وتنظر بدقّة إلى الأمام. خط ثابت. كنت أيضا تقود داخل جسدي، مي سوبليته. وهذا ما حدث بيننا لمرّة واحدة! مرّة واحدة فقط. بعد بضعة أيام قلت لي إنني بكيت. أي نوع من البكاء؟ قلت: مثل طائر مهاجر، مثل طائر الجثنة.

عاودنـــا التحليق في مستوى مقبول. كانت دورة المحرّك منتظمة. مقدمـــة الطائـــرة بعرض ثلاث أصابع تحت الأفق. كلما اختلف اتّجاه الريح، بدت الكاب 10 كأنها مغطاة بالريش. وكانت الشمس إلى جهة اليمين.

قلـــت: فرناندو معنا، هو من علّمني الطيران بطائرة شراعية قبل تـــسع سنوات. قتلوه في العام الماضي. إنه هنا معنا الآن. ما يعجبني في شخـــصية فرناندو هو قدرته على إقناع الآخرين ليكونوا صادقين مع أنفـــسهم، لأنهم يكتسبون عندها تفوقا في القدرة على المفاجأة. وهو تفوق تكتيكي ذو أهمّية في حالات التمرد. الأكاذيب التي نرددها على أنفسنا هي التي تجعلنا نكرّر الأشياء. فرناندو أدرك هذا المغزى.

2500 دورة في الدقيقة.

هل نقوم بدورة كبيرة؟

هززت رأسي.

عند أعلى ارتفاع، سوف أوقف المحرك، لا تقلقي، فقط ليتسنى لنا سماع الصمت.

وهكذا حلّقنا عاليا وقمنا لاحقا بدورتين كبيرتين.

امـــتدتْ يدكَ اليمنى إلى الأمام لمزيد من دفع الوقود. أدرت المقود بتحد باتجاهك، وارتفعنا بثبات، فعرفتُ أنك ستقوم بصعود عمودي. لم يعد باستطاعتنا رؤية الأرض في أي اتجاه، أصبحت الأرض خلفنا.

كـــنّا مـــشدودين إلى الخلف، ومتّكئين على المظلتين، كأنّ وزنا هائلا يدفعنا إلى الخلف. بدا كأنه مصير لا مفر منه، وكأنّ دورك يتمثّل في المحافظـــة على ذلك الضغط قدر استطاعتك. ثم تبدّل صوت المحرك، وكأنه صوت أمواج عاتية تتلاعب بالحصى ثم تخفت تدريجياً.

نظرتُ إلى الأعلى وإلى الخلف. هناك خلف أذني، وجدت الأفق.

بدا الأفق وكأننا نقترب منه، بدا لطيفاً ومنتظماً مثل حافة الأرض اليابسة الممتدة في البحر، إلى أن استقرّ أمام أعيننا، على مستوى عرض ثلاث أصابع تحت مقدمة الكاب.

توقّــف الــزمن بالنــسبة لي ولكن ليس بالنسبة لك، كنت تعدّ وتــراقب وقد أوقفت المحرك. في ذلك الصمت المتسلل، بدت الأرض فوقنا والسماء تحتنا.

كان وزن كلينا الآن أقل من لا شيء. شعرت بجسدي من دون وزن، كأنــه لا ينتهي عند جلدي، بل يمتد عبر الصمت إلى أبعد جهة من كل الأشياء التي أراها.

كــان الــصمت ممتداً لمسافة شاسعة مثل جسدي، وبينما كنتَ تدقّــق وتتابع في الفضاء من تحتنا آثار دورات الطائرة، أصبحت تلك المسافة قريبة وحميمة.

هدهدني الصمت بينما كانت الكاب 10 تغوص لتسترد سرعتها، والمحــرك يواصل دورانه. يدور، ونحن نتوجّه نحو الأسفل، إلى الأسفل نحو الأرض التي كنّا نراها مثل ستارة ممتدة على طول الواجهة الزجاجية للطائرة.

قلتَ لي بعد عدّة سنوات عندما كنّا ننام كلّ ليلة في غرفة مختلفة كــي لا يعثــروا علينا، إن في التحليق العالي غواية في أثناء رابع دورة كــبيرة وآخر 90 درجة من إعادة التوازن، عندما يختار الإنسان البقاء حيّاً فيعود إلى مدار التحليق المقبول.

لكــنّ اختيار الحياة، مي سوبليته كان موجودا، وكان متوقّعاً من المسافة، وحنان الصمت الذي حلّقنا فيه معاً!

ثــلاث دورات كبيرة، ومع كل منها اكتسبنا شيئا إضافيا مما لا حدود له.

أقول لك ذلك وأنت في الحجرة التي لا تتجاوز مترين مربّعين.

سألتني أندريا يوم الخميس الماضي إذا كنتُ قادرة على رعاية ليلى في المساء. كان لا بدّ من ذهابها لختم أوراقها في مركز الشرطة. عمر ليلى أربعة أعوام، لم ترها أنت إلا في الصور. لها شعر جعد وجذاب. وعندما لا تهجس بأمر ما، لا تتوقّف عن الابتسام. أنا وهي نتفاهم سريعاً، رغم أننا، نحن الاثنتين ندرك أنها تفضّل رفقة الرجال.

مشيتُ معها عبر السوق. هناك، عند المنحدر، باتجاه النهر، أقيم سوق متنقل أثناء عطلة نهاية الأسبوع. تجد هناك ألعابا مختلفة، وسيارات كهربائية، وعربات أحصنة، وممراً للعب البولنغ، وطوالات، وألعاب القناني، والأراجيح.

لاحظتُ فورا ما ترغب فيه: ركوب أرجوحة ذات حلقات تدور في شكل دائرة، وكلما زادت سرعة المحرك علت الأرجوحة. لم ترغب في الصعود بمفردها، وأرادت أن أرافقها.

جلست على المقعد الخشبي، وأوثقت حلقات حزام الأمان المثبّتة على الأرجوحة، ثم أوثقتُ حزام ليلى وهي جالسة فوق حضني. بدأت الموسيقى، وأخذت الأرجوحة بالدوران ببطء. في عربات الأرجوحة كافة، لم يكن هناك سوى أطفال، وكنتُ البالغة الوحيدة بينهم.

أعلن موظّف الأرجوحة، بينما كان يتّخذ موقعه في منتصف الدائرة، أن الطفل الأعلى صراخاً يحظى بدورة مجانية في الرحلة التالية!

مع تسارع الأرجوحة، ازداد تأرجحنا حول الحلقات، استعملنا أقدامنا كمحور لتغيير الاتجاه المحتمل. تصاعدت سرعة الموسيقى، وزادت سرعتنا أيضا. دوران ودوران ودوران. صرخت ليلى وكأنها طائر يحلّق.

في نهاية الدورة، عندما بدأت الأرجوحة بالتباطؤ، وضعت قدمي علـــى الأرض، وفككت الأحزمة. قال المسؤول لليلى إنها ربحت جولة مجانية. فضمّت يديها فوق صدرها وقالت: هذه المرة بمفردي!

ربطتُ حزامها، وابتعدت. وبينما كانت الأراجيح تدور في أعلى مستوى، والموسيقى تصدح، وليلى تصرخ، قررت أن أكتب لك هذه الرسالة، حول الكاب 10ب، يا ربّاني.

لك دوماً،

عايدة

من حرفي إلى حرفي،

ملـــيون عامل من العالم الثالث: تمّ استخدامهم لتفكيك أضخم حـــاملات طائـــرات وناقلات ركاب كانت قد استخدمت في أثناء الحـــرب العالمـــية الأولى. بعدما أُرسيت كلّ السفن، تمّ تفريغها من الخشب والمواد العازلة، ثمّ استخدموا حمض الأسيتيلن لقطع هيكلها. أيـــنما تواجدت آثار نفط أو وقود، فثمة احتمال أن يؤدي ذلك إلى حدوث انفجار، لم يرتدِ العمال أي ملابس واقية أو حتى شبه واقية. وقـــع نحـــو 20 إلى 30 حادثـــاً يومياً على شاطئ توسا. كان راتب الحرفيين دولارا واحدا كلّ يوم.

استيقظتُ عند الساعة الثالثة فجراً. كان الضوء المنعكس على كل شـــيء مثل لون الرماد. نهضت، ارتديت ثيابـــي، ومن دون أن أسأل نفسي لماذا، خرجت إلى الشارع. كانت أضواء الشارع مطفأة. سرت نحـــو الصيدلية، فهي عادتي المألوفة. في مكان ما رأيت ثعلباً وتذكّرت فد. قال إن الليالي أكثر عذوبة. قلت لنفسي: ليست هذه الليلة، فكلّ شيء يبدو بلون القمامة.

ســـارعتُ خطواتي، كنت أسمع صوت خطواتي وصوت الصمت الذي ينتظر تغطيتها. فكّرت آنذاك: قد تشعر امرأة بالشفقة على رجل، قـــد تواسيه، لكنّ المواساة لا تدوم طويلاً. فكّرت في الرجال، وكيف يفـــضّلون تحية أحدهم للآخر كمنتصر؛ حتى لو استدعى الأمر ادّعاء تحقـــيق انتصارات صغيرة. لكنّ التهليل المتبادل الذي يقدّمه أحدهم إلى الآخر لا يدوم أكثر من مواساتنا القصيرة.

ثم سمعت صوت قطار يقترب، ذعرت لأنه لا توجد سكة حديد قـــريبة. شاحنة وراء شاحنة أخرى. أغمضت عينيّ. كان قطار شحن، وليس قطار ركاب. كثيرون منا يتطلعون إلى سقف عربات القطار.

فكّـــرت، بيـــنما عيناي مغمضتان: إن ما يدوم هو نساء يحتفين بـــرجال وقعـــوا في حـــبهنّ، كمنتصرين دونما شروط ومهما حصل، ورجـــال يقدّر أحدهم الآخر بسبب تجربة هزيمة مشتركة. هذا هو ما يدوم!

أطلق القطار العابر صفّارته. ذكّرتني بصفّارة جدّي في تورا. كان يكـــسب رزقـــه من تنظيف قطارات الركاب في الليل، وكان يسمّي

الـــسكك الفـــرعية للقطارات، مهاجع. قال لي عندما كنت في عامي الخامس: هناك تغفو المحركات!

لك دوماً،

عايدة

مي سوبليته،

هناك في الزاوية الشمالية الشرقية من المربّع، عند مرمى الدواليب البالية، يوجد دغل ورود بجوار شجرة اليوكاليبتوس. أطلق دغل الورد فرعاً، بطول خمسة أمتار، يتسلّق جذع الشجرة باحثاً عن الضوء ليزهر. خمسة أمتار! ومئة وثلاثون شوكة! لقد عددتها. كان لا بدّ من رفع أغصان الورود اللولبية بين الحين والآخر لكي أتابع عدّها. وخزتني بعض الأشواك في ساعدي. لا أدري لماذا أردت عدّها. ربّما لأنني رغبت في أن أخبرك عن إصرار الوردة. مئة وثلاثون شوكة.

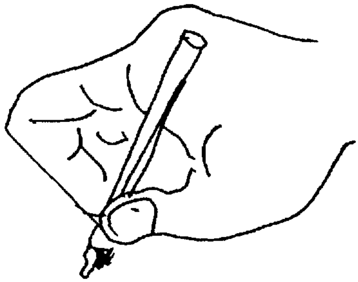
نشأنا أنت وأنا بين جيلين. الأول هو مجموعة المقرّبين منّا الذين ماتوا أو قتلوا. عرفناهم. كثيرون منهم أصغر مما نحن عليه الآن. ينتظروننا بسواعد مفتوحة.

الجيل الثاني مجموعة الشباب الذين يعتبروننا مثلاً يُحتذى. ما اخترناه كمسار حياة يشجّعهم. وهم يوجّهوننا بسواعد مفتوحة للمضي قدماً...

نحن بين الجيلين. وليتنا مي غوابو، كنّا فقط بين أحضان بعضنا!

هل هذا شيء قمتُ به منذ زمن بعيد؟ أم أنه شيء أردت القيام به ولم أفعله بعد؟ على كل حال، أردت وضع يدي على ورقة لأرسم محيطها ولأرسلها إليك. بعد أيام - لا أدري متى - عثرت على كتاب يبيّن كيفية رسم الأيدي، فتحته أقلبّ صفحاته واحدة تلو الأخرى. قررت شراءه. كان يشبه قصّة حياتنا. جميع القصص حكايات ترويها الأيدي: حمل الأشياء، التوازن، التأشير، التجميع، العجن، الحياكة،

التــربيت، الاســترخاء في أثناء النوم، التقطيع، تناول الطعام، المسح، عزف الموسيقى، الخمش، القبض، التقشير، الإطباق على الأشياء، رفع الــزناد، والطــوي. على كل صفحة من صفحات الكتاب رسومات دقيقة لأيدٍ تقوم بعمل مختلف. لذلك سأنسخ واحدة منها.



أكتبُ إليك الآن.

أنظرُ الآن إلى يديّ اللتين تشتاقان إلى لمسك. تبدوان لي وكأنهما بلا جدوى، لأنهما لم تلمساك منذ وقت طويل.

عايدة

صـــندوق النقد الدولي، البنك الدولي، الاتّفاقية العامة للتعرفة الجمـــركيّة والتجارة، منظّمة التجارة الدوليّة، اتفاقية التجارة الحرّة لشمال أمريكا، مناطق التجارة الحرّة لشمال وجنوب أمريكا، كلّها أسماء مؤسّسات تكتم أفواه اللغة، بينما أفعالها تكبّل العالم وتخنقه.

نور،

أسألكَ دائماً إذا كان إبهامك قد تحسّن؟ لَم لا تخبرني؟

في الـــصين شجرة اسمها جينكوبيلوبا. حسب تصنيف الأشجار فهي من فصيلة بدائية. يُطلق عليها الصينيون اسم شجرة *المئة ترس*. وأنا أريـــد أن يكون لك مئة ترس. خصائصها الطبية هي أنها تنشّط الدورة الدمـــوية؛ خاصـــة في الـــساقين. جينكوبيلوبا. أسمعك تلفظ الكلمة. تستخدم صوتك العميق.

كتبتَ إليّ - وصلتني رسالتك الأخيرة قبل أسبوع - كيف قاموا بحلاقـــة شـــعر إحدى السجينات. أعرف ما شعرت به، تماما مثل من قيّدوا يديه وقدميه إلى أن يتعلّم الانسلال من الأغلال. يحتاج الأمر إلى نحو أسبوع. لكن الحقد تجاه الأيدي التي قامت بذلك حقد أبدي.

إنها الثالثة صباحاً، وربما لا يمكنك النوم مثلي.

أحـــد الكراســـي مكـــسور، قوائمه مفلطحة، ومقعده مخلخل، والدعائم الجانبية بين القوائم غير ثابتة في مواقعها.

كـــان إدواردو يجلس على المقعد، ويلقي خطاباً حول محو الأميّة. انكـــسر المقعد فجأة، وسقط إدواردو على ظهره فوق الأرض! لملمنا قطع المقعد ضاحكين ووضعناها في الزاوية.

وبمـــا أنني لا أعمل هذا الصباح، فقد قررت إصلاحه. كنت قد اشتريت قارورة صمغ بيضاء لزجة كعصارة في ساق نبتة الهندباء. قلبتُ المقعـــد وجلـــست على مقعد آخر. أحضرت مطرقة، ومفك براغي وخـــرقة. الخـــرقة كانت كُمّا أو جزءاً من كمّ معطف مبطّن اعتادت

أولغـــا ارتـــداءه. كنتُ أعرف تماماً ما يجب أن أفعله. أخرجت جميع القوائم التي تمكّنت من سحبها من ثقوبها. قررت أن تلك التي لا يمكنني زحـــزحتها كانت قويّة. ثم عصرت الصمغ في الثقوب الفارغة وعلى أطـــراف القـــوائم والدعائم. قمت بترتيبها في صف، ثم وضعت كل طـــرف في الثقب الملائم، وطرقته بالمطرقة حتى استقام في مكانه. كنت قـــد لففـــت الخرقة حول الخشب المدهون لأحميه من ضربات المطرقة. تـــرابطت القطع بسلاسة، وعاد كلّ شيء إلى مكانه الصحيح. قلبت المقعـــد ثانـــية على قوائمه ونظرت إليه. عندها حدث شيء غريب. أجهشت بالبكاء. بكيت لدرجة أنني لم أعُد أرى شيئاً.

بعـــد فتـــرة، لا أعـــرف كم طالت، ذهبت لأغسل الصمغ عن أصابعي وأنظّف وجهي.

عـــندما عدت إلى الغرفة، كان المقعد هناك منتصباً. كلّ شيء فيه ملـــتحم، والصمغ الفائض حول الثقوب ينتظر تنظيفي له بكمّ معطف أولغا. مسحته، أحكمت شدّ ثلاثة براغيّ، ثم نقلته قرب النافذة (حيث تعوّدنا مراقبة القططة على السطح). قلت لنفسي، انتظري يومين حتى يجفّ الصمغ.

مـــا الـــذي دفعني إلى البكاء؟ أهو سهولة إصلاح المقعد وصعوبة تـــصليح الأشياء الأخرى؟ أم لأنني تبينت أنني لم أعد أعتمد عليك في مثل تلك المهمات. الاعتماد عليك!

الأشياء الصغيرة هي التي تخيفنا، والأشياء الضخمة التي بإمكانها أن تقتل هي التي تمنحنا الشجاعة.

لك دوماً،

عايدة

كـــنتُ هذا المساء في ضاحية *ملتقى الطرق*، مررت قرب مقهى كـــنت أرتـــاده في صغري. خطر لي أن أدخله. كانت هناك موسيقى تـــصدح، موسيقى أكورديون. لم تكن تنبعث من المقهى، بل من قبو تحت المقهى، ويؤدي إليه درج.

كـــان عـــازف الأكورديـــون واقفا، ورأسه يكاد يلمس دعامة الـــسقف، فيما جلس بضعة زوّار حول بعض الطاولات، وفي الوسط رجل وامرأة على وشك الرقص، أو ربّما إعادة الرقص للمرّة الثالثة أو الخامسة. بدت المرأة وكأنها لم تتجاوز السابعة عشرة.

نـــزلت إلى حلبة الرقص بمفردها، رفعت يديها بعيدا عن جسدها منتظـــرة. لم تكن تنتظر رفيقها الذي كان يراقبها مذهولا، أو عازف الأكورديون الذي باشر عزفه من جديد، أو ثنائياً راقصاً آخر ليشاركها الـــرقص. كانت تنتظر أن تحملها بعيدا تلك القوى الموجودة داخلها، كانت تنتظر انطلاقة تلك القوى. تنتظر بهدوء، وكعبا قدميها مرتفعان عن الأرض قليلا، ووجهها منبسط التعابير، ومعصماها وكفّاها مقلوبة نحو الأعلى، كما لو أنها تتوقّع هطول المطر. وعندما تشعر بقطرة المطر الأولى، تتحرّك راقصة.

هطلـــت قطرات المطر! دارت دورتين بأكثر من عشرين خطوة، ولحق بها رفيقها الذي كان يرتدي معطفا من الجلد وبنطال جينـــز.

كانت ثابتة، مثل لون صبغة، لم تكن هي ذلك اللون، بل كانت إرادتهـــا. هـــل يتعلّق الأمر بالعمر؟ نعم ولا. كلّ الألوان تفقد بريقها، ولكنني آمل أن يكون لوني ما زال مشعّا مثلها.

تعرفُ المقعد حيث أجلس قبالة المرآة لتصفيف شعري. لا بدّ من أنـــه يعـــود إلى خمـــسين سنة مضت. أصبح غطاء المقعد المطرّز باليا وتلاشـــت ألـــوانه. على التطريز بقايا بقع تغطي الأشرطة ورسومات الفاكهـــة التي زينته في يوم ما، ولكنّ كلّ خيوط الحرير الملوّنة تآكلت. قـــررتُ إعـــادة رفْوَه، فأخذته إلى برام في متجره الصغير خلف سوق العتيق.

هل يمكن رفو مقعد؟

أرفو كراسي وأرائك فقط.

إنه مقعد صغير وقد أحضرته معي.

لرفو مقعد ينبغي لك الذهاب إلى صانع أسرجة!

ثم ضـــحك وقال: من أجلك سوف أرفو بيانو عمودي الأوتار!

مـــن خلف نظارته الداكنة - فهو يعاني من التراخوما - كانت عيناه الـــصغيرتان مبتـــسمتين. من المعروف أن هذه المهنة تعتمد على حاسّة اللمس.

عـــندما عـــدّت لاستلام المقعد، كان ما زال يبتسم. قال: لدي مفاجـــأة لك. رفع قماش المقعد القديم الذي تلاشت ألوانه لأراه. وبعد لحظة، أداره رأساً على عقب. وهناك في الخلف رأيت كتلة من خيطان الحرير في كامل رونقها. بدت وكأنها صُبغت بالأمس. مصبوغة بألوان متعدّدة: البنفسجي، والبرتقالي، والأحمر الرماني، والقرمزي، والليموني، والأخضر اللوزي، والأسود الكحلي، والعاجي.

شرح لي كيف أن تلك الألوان احتفظت برونقها لأنها لم تتعرض للضوء؛ بل تعرّضت لأرداف من جلس على المقعد وللحشوة الداخلية.

قـــال: أظـــنّ أنـــك قد ترغبين في الاحتفاظ بهذا القماش. بدت عقد الخـــيطان مثل جزيئات صغيرة. حمراء وبيضاء ونحاسية وياقوتية. فوق

العديـــد منها تركت الحائكة بقايا خيطان، بدت مثل الشعر، وعندما لمست القماش بظهر يدي، وقفت تلك البقايا كالشعر.

كانت حدّة تلك الألوان تحفظ سرّ الإبداع. الألوان موجودة لتثير الرغبة. أليس لهذا السبب نطرّز نحن النساء؟ كنّا نطرّز قبل معرفة إعداد المتفجرات. كلاهما يحتاج إلى صبر هائل.

ربّما لهذا السبب ذكّرتني الفتاة التي ترقص على أنغام الأكورديون في القبو بصباغة الألوان.

ما يعرفه شباب اليوم يدركونه بحيوية وبدقّة أكثر من أي شخص آخر. هم خبراء في المجالات التي يعرفونها. ما تبقّى يمكننا توضيحه لهم. ربمـــا كان الأمر هكذا في كلّ الأزمنة. ما يمكننا توضيحه لهم اليوم هو أن الانتـــصار وهـــم، وأن الـــصراع أبدي، وأن متابعة الصراع- بهذا الوعي- هي الطريقة الوحيدة للاعتراف بعطاء الحياة الهائل!

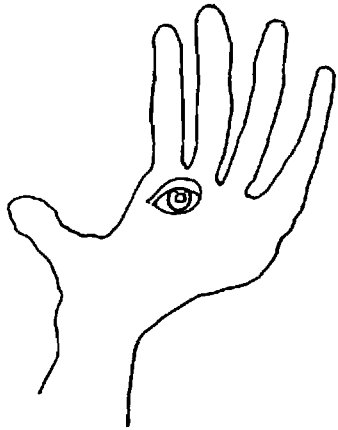
قـــبل اعتقالك، كنت أفكّر قليلا في المستقبل. ربّما قال آباؤنا إن المستقبل هو ما كنّا نصارع من أجله. ليس نحن. نحن صارعنا من أجل الحفاظ على ذواتنا.

مـــنذ اعتقالك، يرافقني المستقبل دوما، لأنني أنتظرك. أتخيّل حياة أطفالـــنا غـــير المولودين بعد. لا أعرف ما إذا لو كان عقلي أو رحمي الّذي يتخيلهم، وربّما ثدياي.

ليسوا بالضرورة أطفالنا. من يدري لو كنتُ سأحقق يوماً حلمي بحمـــل أطفالـــك؟ مـــن يدري لو كنت سأنجح في اجتياز الفجوة بين الأرض الإسمنتـــية والباب الحديدي المحصّن لزنـــزانتك. في حزامي ما يكفي لتفجير الوقت.

في تلـــك اللحظة، قبل موتنا، ربّما يقوم الزمن بدورة كاملة إلى الـــوراء، مي غوابو؛ ربّما في مثل تلك اللحظة فإعادة النظر إلى الوراء

تمنحنا كلّ وعود المستقبل. ربّما يصبح الماضي خصبا لو كان المستقبل عاقــراً! ربّما قلب التطريز المتآكل على الوجه الداخلي للمقعد، لكي نرى خيوط الحرير تماما كما كانت لحظة خروجها من الصباغة.



أرســـلتُ إليك أربع علب من القهوة الجامايكية، ثلاث علب لهم وواحدة لك.

عايدة

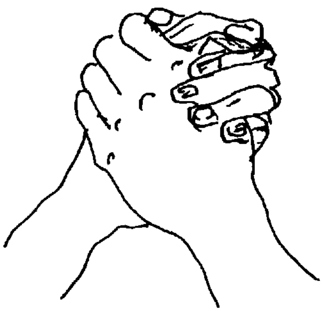
الحزمة الثانية من الرسائل

على شريط قطني ملفوف حول حزمة الرسائل، كتبت الكلمات التالية، بحبر تفشّى قليلا عبر الشريط:

نحن لا نملك الأمل، بل نحن نحمي الأمل.

مي غوابو،

تحــلّ آخر عتمة الليل. لم أنم بعد، كنت أفكّر في المستقبل. ليس أي مــستقبل في أي مكان. ليس مستقبلنا معاً. كنت أفكّر في المستقبل هــنا، الــذي يحاولــون إجهاضه. لن ينجحوا. المستقبل الذي يخافونه سيأتي. ومعه سيأتي ما سيتبقى منا، الثقة التي رعيناها في العتمة.



عايدة

نور،

هل تذكر نينها التي كنت تسمّيها *أعز دبلوماسية*؟ لقد جاءت قبل أسبوع. لها وجه دائري، وقدمان صغيرتان، وتُوحي بانطباع، سواء أكانت جالسة أو واقفة، وكأنها تنظر إلى العالم من شرفة عالية. أحضرت لي شراب القيقب، لأنها عادت مؤخرا من كندا. مضى وقت طويل منذ آخر مرّة قابلتها فيها، ما زالت راوية قصص غير اعتيادية. روت لي قصة تاجر أسلحة التقته في موسكو.

أي نوع من الأسلحة؟

ضمت كتفيها وأضافت أنه دعاها إلى زيارة لاتفيا.

لِمَ لاتفيا، هل لديه أعمال هناك؟

لرؤية بحر البلطيق.

وماذا أراد منك؟

أعجبته تعابيري.

إذاً، دفعته إلى الضحك؟

ليس تماما. كان متوترا للغاية، وفيما عدا اللغة الروسية كان يتقن الإنكليزية فقط.

أنت تتحدثين الإنكليزية بطلاقة؟

لا يا عايدة، نسيتها. كنت أتحدّث الإنكليزية بطلاقة عندما كنت في مدينة بوينس آيرس منذ وقت طويل. رغم ذلك جعلت أصدقاءه يضحكون، توسّل إليّ أن أعيد سرد قصصي على مسامعهم مرة تلو الأخرى.

هل بقيت هناك لمدة طويلة؟

لحين اغتياله.

اغتياله!

كنت أنتظره في المسبح، ثم سمعت صوت طلقة ناريّة. انتظرت وانتظرت و لم يأت.

إذا؟

غادرت المدينة. بقيت هناك لخمسة أيام فقط.

هل تعرفين من قتله؟

ليس لدي أدنى فكرة.

أحسستُ فورا بغضب بالغ، وفقدت السّيطرة على نفسي. صرختُ بها، أعتقد أنني سميّتها ساقطة. بدت كالضائعة. أعرف أنني كنت غير عادلة، لكنّني لم أتمكن من السيطرة على فورة غضبي. هززت جسدها بيديّ. لم يكن مصدر غضبي ما فعلته أو لم تفعله، أو كيف تصرفت مع الروسي في فندق ريغا، كان ذلك أمرا لا يعني أحدا سواها. كانت دواعي غضبي آتية مما لم تنطق به؛ من صمتها المتعدد. هذا ما أثار حنقي. الحفاظ على السرّية فضيلة دونما شك ولا غنى عنه غالبا. ولكن صمت نينها كان مصدره اليأس.

توصلتْ نينها إلى قناعة بأن الحياة عَرَضٌ؛ شيء لم يكن حدوثه متوقعا. لذا، من الأفضل التزام الصمت، ومن الأفضل لملمة الشظايا المتبقية ثم لصقها معاً نوعا ما، وعدم التحدّث عمّا تبقّى. لا شيء. لا شيء! لا شيء!

ابتعدتْ عني وغادرت من دون التفوّه بكلمة أخرى، تاركة الباب مفتوحا. خرجتُ وجلست على أعلى الدرج الخارجي. كانتْ قد اختفت. كنتُ أسمع حفيف شجرة الأوكاليبتوس بفعل الريح. تساءلت

هل كان مصدر غضبي الجنوني الشّك والخوف من إمكانية اعتقادي أنا أيضا أن الحياة قد تكون حادثا غير مقصود. جلست وبكيت، خجلة ومشفقة على نفسي.

بعد يومين قرعت نينها باب البيت. كانت تبتسم واضعة إصبعها فوق شفتيها لتشير إليّ بألاّ أتكلّم. عبرت الغرفة باتجاه جهاز "الستيريو"- ما زال في الزاوية حيث صورة الجبل - ووضعت أسطوانة. ثم وقفت هناك، ويداها فوق خصرها، وهي تنتظر موسيقى التانغو، بإيقاعها المصيري كإيقاع الدم. بدأت الرقص، لم تنظر نحوي، لكن اختيارها أين تخطو، دلّ على اعترافها بوجودي!

تتألّف موسيقى التانغو من قصاصات من الحياة حظيت بفرصة البقاء. قصاصات وقطع ثياب، تتلاقى في تقاطع السيقان التي ترضخ من دون توقّف لإيقاع جريان الدم المراق وغير المراق.

انتظرتُ عودتها للاستراحة، ثم شاركتها الرقص. رمقتني بابتسامة وأمسكت بي، على طريقة الميلوغورو، فأصبحنا متلاصقتين، بينما بقيت ساقيّ وساقاها حرّة. أدارت الرقص واتبعتها. انتظرتها وانتظرتني. كان جسدانا ينصت كل منهما إلى الآخر. لم تُخفِ شيئا، حتى الصمت. وهبتْ ذاتها كليا، وفعلت الشيء ذاته، كنّا مثل شفرتي مقصّ واحد نقصّ معاً. القصّ يصنع ثوبا من قطعة واحدة، كان حدوثه متوقعا.

هل تعرف ماذا سأقصّ لك؟

أحبّك.

لك دوماً،

عايدة

"لـــيس هناك تاريخ أخرس. مهما بلغ امتلاكهم له، وتدميرهم إيـــاه، أو أكاذيبهم حوله، لأن التاريخ البشري يرفض إغلاق فمه. وبالـــرغم من الطرش والجهل، فإن الوقت الذي مضى ما زال يقرع بانتظام داخل الوقت الحالي".

هذا ما قاله لنا جاليانو. شكراً لك إدواردو.

مي غوابو،

كـــان عمره ثلاثة عشر عاما، ربما أربعة عشر. أصبح صوته مثل صــوت الـــرجال. ولكن، من دون إيقاع أصواتهم. راف كان يتألم، مصمماً على عدم إظهار ألمه. قرع "س" وطفلان آخران باب الصيدلية الأمامـــي، وأيقظوني من النوم. كان راف يعاني من جرح في ساقه و لم يعد قادراً على وضع ثقل قدمه اليمنى على الأرض. حمله الطفلان ويداه حول أكتافهم وهو يقفز. قالوا لي إن اسمه راف.

الـــشجاعة العفوية تبدأ منذ الصغر. ما يتطوّر مع العمر هو قدرة الاحتمال، إنّها هديّة شاقّة ولا نكتسبها إلاّ مع مرور السنوات.

أطلقوا النار على راف من إحدى سارات الجيب. كان قد خرج مـــن منـــــزله بعـــد حظـــر التجول. تمكّن من الزحف تحت شاحنة مهجورة، ومن الاختباء بين الخرائب. قلت للأطفال إني سأفحص ساقه بمفـــردي في الصيدلية، خوفاً من لفت أضواء الصيدلية الأنظار – كان الوقت بعد منتصف الليل – فمن الأفضل تجنّب تورّطهم في الأمر.

أحـــضرنا نقّالـــة مـــن الصيدلية، ووضعنا راف فوقها، وحملناها عائـــدين عـــبر الطريق المتشقق، ثمّ وضعنا الحمّالة فوق سرير المرضى الموجود في الصيدلية في الغرفة الخلفية. بدا راف كما لو أنه فقد كمية كبيرة من الدم.

أخبرتُ "س" أن بإمكانه العودة لو أراد بعد نحو ساعة، ولو وجد الـــصيدلية مطفـــأة الأنـــوار ومغلقة، فذلك يعني أنني نقلت راف إلى المستشفى على وجه السرعة.

حملق الصبيان الثلاثة بـــي وكأنني أصبحت بالغة الضخامة. قلت مطمئـــنة: على الأغلب لن تكون هناك ضرورة لنقله، سأبذل قصارى جهدي لتجنب المستشفى. ولكن، علينا توقّع كلّ شيء، أليس كذلك؟ لو بقينا هنا، اقرعوا على الباب ثلاث مرّات عند عودتكم.

عـــندما أصـــبحنا وحدنا، ابتسم راف ابتسامة غريبة بالنسبة إلى شـــاب يافع، كما لو أننا مؤهّلان للقيام بعمل ما، وأن ابتسامته دليل الاعتراف والافتخار بذلك.

قال: أطلقوا النار خمس مرات. وأعتقد أنهم أخطأوا ثلاث مرات.

أين والدتك؟

في القرية.

ماذا تفعل هنا؟

أعمل هنا.

تعمل في هذه الساعة المتأخرة!

أجابني: أنت أيضاً تعملين في ساعة متأخرة. ثم قطّب عينيه قليلاً. لم أكن متأكدة كانت تلك الإشارة دلالة على الألم أو على التواطؤ، أو ربّما على الاثنين معاً.

أرخـــيت حزام بنطاله الجينـــز، ونظّفت ساقه، وقطعت بالمقص الرباط المشدود إلى أعلى فخذه. لم يظهر تدفق دم مفاجئ، فالشريان، والحمـــد لله، كان سليماً. كان يراقبني بفضول، إنما ليس حول وضعه الحالي. سألني: هل تعرفين ما أحلم به؟

فحـــصتُ ردّات فعلـــه بحـــكّ باطن قدمه المغبر والملوث بالدم، فانتفـــضت ســـاقه بشكل عادي. إذاً، أعصاب ساقه سليمة. غسلت قدميه.

سألني مجدّداً: هل تعرفين ما أحلم به؟

لا، قـــل لي. سوف أفحص جرحك الآن، لو تألّمت كثيراً دعني أعرف.

قـــال: أحلم أن أكون مستلقياً على سطح زورق وأنت تقودينه، ونمـــضي بعـــيداً عـــن الشاطئ، والزورق يصارع الأمواج. يصارع. يصارع.

كـــان هـــناك جرحان متجاوران. أحدهما كان طويلاً وسطحياً، والآخـــر كـــان صغيراً وبشعا وغائرا. كان تخميني أن الرصاصة، التي سبّبت الجرح الأول، دخلت بزاوية منحرفة، لأنها أطلقت من علو وأنها خرجت، عند نهاية الجرح الثاني، فوق الركبة.

علـــى الأغلب استقرّت الرصاصة في الجرح البشع. خطوتُ عبر الغرفة إلى حيث توجد مسكّنات الألم بحثاً عن حقنة مورفين.

همس قائلاً: لا تذهبـــي.

هـــل تعتقد أنني سأتركك على الطاولة؟ سوف أعطيك حقنة في الجزء الأعلى من ذراعك.

أعطيته حقنة 5 ملغم، وانتظرنا كلانا.

ســـألته: إلى أين يبحر زورقنا؟ بينما كنت ألتقط بيدي اليسرى الملقـــط الجراحـــي الـــصغير لكي أبقي طرف الجرح مفتوحاً. يقول الفرنسيون *ضفة الجرح*، مثل ضفة النهر.

أمـــسكت بيدي اليمنى ملقطا جراحيا وبطرفه كنت أنقر بلطف شديد على طول الجرح البليغ والسطحي في انتظار سماع طقطقة معدنية أو لمـــس صلابة معدنية مباشرة. يمكنني على الأرجح اكتشاف رصاصة كامنة بهذه الطريقة وليس رؤيتها مباشرة.

قـــال: قولي لي إلى أين نبحر. أنا مستلق على ظهري على سطح الزورق وأنت القبطان. إلى أين نتوجّه؟

ليست هناك رصاصة. أرخيت طرف الجرح ثانية. الآن، سوف أفحص الجرح البشع.

سألته: هل تعرف شيئاً ما حول أحلام الرجال، كل الرجال؟

قال بصوت أجش: أخبريني.

تحبّون أحلام الراحة والرفاهية...

بينما كنت أجسّ الجرح، أعتقد أنني سمعت طقطقة معدن. نقرت مرّتين. إنها رصاصة.

والنساء بماذا...؟ فجأة أطبق أسنانه.

سوف ننتظر قليلاً.

سأل ثانية: بم تحلم النساء؟

قلت: يحلمن بأماكن لم تعد منفصلة عن بعضها.

قال: لا بدّ من فصل الأماكن، أليست الكيلومترات لهذه الغاية!

منطق جوابه الهادئ ذكّرني بك بشدة، حتّى إنني عضضت على شفتي.

همست: لا تنظر الآن، أغمض عينيك.

لو أغمضتُ عيني فسوف ينتابني الخوف، وكأنني أرى رشاش عوزي مسلّطاً مباشرة نحوي.

إذاً انظر إلى وجهي، وليس إلى يديّ.

قال: لك غمّازتان! ما زالت غمّازتاك واضحتين على وجهك.

أخرجتُ من عمق الجرح، بواسطة الملقط الجراحي، رصاصة خضراء مثل سنّ تسوّست. لم يجفل. ثم سكبت محلول البيتادين على الجرح إلى أن تدفّق مثل بركان، فأطبق قبضة يده اليمنى، لا أكثر.

التقطت الرصاصة بملقط صغير. كانت رصاصة من نوع عوزي 30 ملم، رفعتها ليراها. بدأ بالنشيج. وضعت رأسي قرب رأسه، وبعد دقائق أدركه النوم.

أغلقتُ جروحه بإبرة صغيرة هلالية الشكل وخيط جراحي. أعادت وخزات الإبر ضفّتي النهر معاً، ثم قمت بلفّ الخيط حول المقّص الصغير الذي يحمل الإبرة، لأصنع عقدة. تابعتُ العقد واحدة تلو الأخرى على طول الجرح. ضفّتا الجرح تريدان الالتئام. وضعت قطعتي شاش، وأضفت وسادة تحت رأسه. وهززت السرير كما لو أنه زورق يبحر بين الأمواج العالية.

كان الوقت الثانية والنصف فجرا. كنّا بمفردنا، كنّا ننتظر. هدوء مطلق. أملت أن تكون أنت غافيا.

رسالة غير مرسلة

مي سوبليته،

أعـــيدُ تـــرتيب الأشياء في صناديق: الأواني، الكؤوس، الموازين، الجبائر، الحقن، المقصّات، علب، علب. وأقوم بتغليف كلّ شيء. كم مـــن مرّة في حياتي اضطررت فيها إلى التنقل بين الأمكنة؟ تعود بداية التنقل إلى طفولتي، اعتقدت آنذاك أنّها لعبة إلى أن لمحت دموع والدتي.

هناك سطر، لو أنني أتذكّره: الأحصنة الصاهلة... "ما من أرملة تريد العودة إلينا، هناك حيث رحلنا مكرهين، إلى شمال الأحصنة الصاهلة...".

أنتَ معي أينما ذهبت.

في هـــذه الـــصيدلية الـــتي ينبغي مغادرتها قريبا، تابعت إدلميس ولسنوات عديدة، حتى قبل ولادتي، صرف الوصفات الطبية وتزويد من جاء يشكو من الألم بنصائحها ومتابعة صلواتها بجبينها المقطّب. في تلك الأيـــام، كانـــت ترتدي ملابس طويلة تصل إلى رسغي قدميها، ذات نقشات وردية كما لو كانت وصفة أعشاب طبّية. كنتُ أنا من أدخل فكرة ارتداء الزيّ الأبيض الخاص.

مع نهاية هذا الشهر، لا مفرّ من إغلاق الصيدلية ومغادرتها. قرار قـــاس بالنسبة إليها. قالت في الأسبوع الماضي: ليس هناك داعٍ لأخذ الأفاعـــي. شكت لي هذا الصباح قائلة: أعرف معنى أن يفقد الإنسان رشده، لكن مغادرة هذا المكان تفقدني أكثر من عقلي.

أعرف أنني مثل الحياة بالنسبة إليك، في أتراحها وأفراحها.

كان يمكن لإدلميس التقاعد، وبيع الصيدلية ولكنها لم تختر ذلك. عقلـــها العلمي يعرف أن مثل هذا الخيار عقلاني وهي تصبو إلى دعمي

لــه. تقول: عندها يمكنك تدبّر أمورك على نحو أفضل. وأما الساحرة فيها فترفض ذلك الخيار وتردع نفسها عن اتّخاذه. تتابع: سوف نعرف القرار، عندما يحين الوقت المناسب.

لو أنّها لم تواصل صرف العلاجات والمسكّنات ووصفات الأمل والتحذيــرات، فماذا سيكون مصيرها؟ كانت حتماً ستصبح مقعدة، تجلــس في غرفتها، وتعدّ الأيام، وستصبح أرملة مرة ثانية، ولاختفت خلف الأحصنة الصاهلة.

لــيس كــياني ما أمنحك إيّاه هذا المساء وأنت في زنــزانتك - ســيكون ذلك بسيطاً - ما أمنحك إيّاه هو ذاتك، ذاتك التي أحبها في كل جزء منها.

الموقــع الجديد حيث انتقلنا لا يبعد سوى خمس دقائق من هنا، قــرب مــصنع المثلّجات. كان سابقاً لتاجر حبوب، ثم لتاجر ألبسة. أســتمع إلى صدى في عقلي: سوف أموت من أجلك، ولو متّ أنت قبلــي، فــسوف تناديني. ينبغي إفراغ الخزائن ذات الأدراج التي يمكن سحبها، والتي تحتوي على كل الأدوية حسب التسلسل الأبجدي، لكي ننقل محتواها كلّ على حدة، ثم نعيد ترتيبها في سقراط.

ســوف يبنون هنا برج مكاتب جماعياً، والممرات والبيوت المائلة والــزوايا المعــتنى بها سوف تتمّ تسويتها بالأرض بواسطة الجرّافات، وسينتهي بها الأمر إلى خارج الوجود.

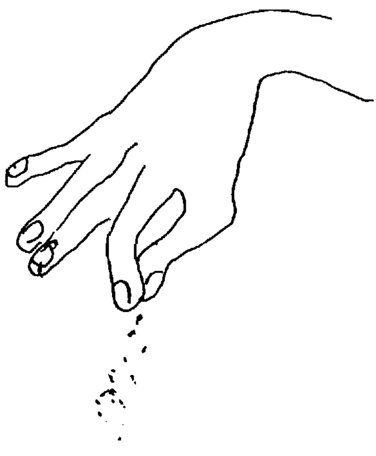
تتــراكم أمامــي أدوية البلادونا، إيبوبرفن، ليزين، باراسيتامول، تيوفيللين، فالريان...

هذه الظهيرة، قلتُ كلاماً دونما تفكير مسبق، بدّل نفسية إدلميس في ومضة. لأول مرة منذ شهر، التمعت عيناها، ورفعت يدها وأصابعها كما لو أنها تعزف على كمان غير مرئي في الهواء...

قلـــت: دعينا نعيد ترتيب هذه الأدوية بطريقة أخرى في سقراط.
أجابـــت: ماذا تقولين؟ تذمّرت. قلت: ببساطة، نعيد ترتيب الأدوية، بالطـــبع حسب التسلسل الأبجدي، ولكن ليس حسب نوع التعبئة، بل تبعا لمواصفاتها.

اســـتوعبت فورا. لن نصنّفها حسب نوعيتها كحبوب، بودرة، كبـــسولات، محالـــيل، كـــريمات، دهون، إلى آخره، بل حسب الفئة العلاجية: القلب، الأمعاء، الدم، الغدد، الجهاز البولي، إلى آخره.

قالـــت: لم أر ذلـــك من قبل، و لم لا؟ دعينا نقوم بذلك. سوف تكون طريقة ناجحة.



ســـوف تسأل ما الفرق؟ لا أعرف. كلّ ما أعرفه أن حياتي كلّها قادتني إليك وأن إدلميس كانت سعيدة قبل مغادرتها هذا المساء.

هل للموضوع صلة بتركيبتنا الأساسية؟

لك دوماً،

عايدة

أحياناً يستحيل إيجاد الوقت بين الفَينة والفَينة
لأقول لكِ ماذا تعنين لي.
أنتِ وردة قلبـــي –

جوني كاش، في الليلة الماضية...

لو كنتِ مرهقة فضعي رأسك على ذراعي
أنتِ وردة قلبـــي.

نور،

طلبتَ مني إرسال بعض ألواح الصابون. كما قلتَ: هذا أقرب ما يمكننا الوصول إليه عوضاً عن السباحة. وصلت رسالتك هذا الصباح. لــذا، سوف أرسل إليك اثنتي عشرة قطعة صابون على أمل أن تصلك أربع منها.

هـــناك أرملة اسمها تمارا، تتردّد على الصيدلية من حين لآخر. في الـــسبعينات من عمرها. جاءت هذا الصباح لأنها جرحت سبّابة يدها الـــيمنى. إنّه جرح طفيف لكنه ملتهب. يعود الجرح إلى قبل يومين أو ثلاثة، حين كانت تقطّع شرائح البطاطا بسكّين حاد.

رأيت الجرح. لم يَره أحد سواي. الآن، الاثنان – هي والجرح – يثير أحدهما أعصاب الآخر. ذهبتُ لإحضار بعض المراهم وقطع الشاش اللاصقة.

شـــرحتُ لـــتمارا كيفية استعمال الغيار. قلّدت حركاتي بيدها اليسرى وضحكت.

ناشدتني قائلة: مرة أخرى.

لـــذا، شـــرحت لها ثانية. قلّدتني هذه المرّة بتركيز طفلة تتعلّم كيفـــيّة إلباس دميتها. تحوّلت يدها اليمنى إلى الدمية. الآن، يمكنها العـــودة وحـــدها إلى غـــرفتها الـــصغيرة برفقة دمية وليس برفقة جرح.

قالت بعد أن دفعت الحساب: شكراً، أنتِ كائن نورانيّ.

هززتُ رأسي، وقلت لها: ولكنني بدون أجنحة.

وصـــلني اليوم تثبيت رفضهم طلب زواجنا، اعتماداً على إحدى الفقرات المجحفة في القانون.

لـــيس من خطأ ممكن أكثر جسامة من الاعتقاد بأن الغيابَ حالة عـــدم. الفـــرق بـــين الاثنين هو مسألة التوقيت. (وهو أمر لا يمكنهم إلغاؤه). العدم يحدث أولا والغياب بعده. في بعض الأحيان يسهل خلط الاثنين: هذا هو مصدر بعض أحزاننا ومآسينا.

لك دوماً،

عايدة

قـــد تتحطّم كلّ الوعود في لحظة ما. وقبول الفقراء المحن ليس فعـــلاً سلبيّا ولا استسلاما. بل هو قبول يخفي خلفه تلك المحن. إنّه قـــبول يكـــشف عـــن وجود شيء ليس له اسم. ليس وعداً، لأن (معظـــم) الوعـــود منكوث بها. إنه شيء ما كأنه بين قوسين، جملة اعتراضـــية في معترك تدفّق الزمن غير الرحيم. أمّا المحصلة الإجمالية لتلك الجمل الاعتراضية فربما يكون الأبديّة.

ذهـــبتُ هذا المساء بعد انتهاء العمل، لزيارة أرديان في سيومال. قطفت الكشمش الأسود من حديقتها الصغيرة، بينما كانت تتابع غسل شعرها بحمّام من الزنك. شعرها أكثر كثافة من شعري؛ يمكنك إخفاء جيش خلفه!

الكشمش يلطّخ الأصابع بلون أحمر. مذاقه- وليس لونه الأسود، الأسود المائل إلى الأزرق - يشبه ما يحيا في قاع البحر. ربّما مثل مذاق قـــنفذ البحـــر أو اللافقاريّات البحرية الأخرى، التي قد يكون مذاقها مـــشابه لكنه أقل حدّة وحرقة. كيف توصّلت إلى هذه المعرفة؟ لست أدري مي غوابو، لكنني أعرفها.

هل تذكر رائحته؟ رائحة الكشمش الأسود؟ خاصّة رائحة أوراقه عـــندما تبدأ الفاكهة بالنضج. أعشق تلك الرائحة. أريد إيصال رائحة الكشمش إلى سجنك.

هناك نوع من الحلزون الأبيض الذي يعشق الكشمش أيضا. هل تعـــرف كم نوعاً الحلزون؟ إنّها خمسة وثلاثون ألف نوع! أريد إيصال رائحة الكشمش إلى سجنك هذه الليلة.

هذه الحلزونات، صغيرة بحجم ظفر خنصري. عشرات منها تنام فـــوق أوراق الكشمش، كأن الأوراق أرجوحة لها. ومهما تناولت من غـــذاء، فـــلا تحدث أي ضرر واضح. حلزونات عديدة - أتذكّر ما تعلّمـــناه - آه، الأشـــياء التي تعلّمناها! تحصل حلزونات عديدة على غـــذائها لدى حكّها لسانها الخشن فوق الحجارة ولحاء الشجر، وتأكل كما لو أن الغذاء على حافة الأرصفة التي تزحف فوقها.

في دغـــل أرديان، لو ابتلع كلّ حلزون عشر حبّات كشمش في الساعة فلن تلحظ شيئا، بسبب وفرة تلك الفاكهة!

يذكّــرني الأمــر بما رواه لي دمتري. اضطرّ إلى التوقّف عن بناء منـــــزله لعـــدم توفّر المال لديه، كما قال لي بالأمس. يقول المثل: أن تأخذ قليلا حيث تتراكم الوفرة، ليس سرقة، بل مشاركة!

تشبه الحلزونات ما قلته لك عن قنفذ البحر. كلّ مدة حياة قصيرة للغايـــة مقارنـــة بطول حياة الذاكرة. وكذلك نشأت شوكيات الجلد وبطنيّات القدم وتطوّرت في الفترة الزمنيّة نفسها تقريبا، قبل الثدييات بوقت طويل. وأنت حكموا عليك بالسجن مدى الحياة لمرّتين!

كان الطقس طوال النهار حارا وضاغطا. أردت حينها أن أرسل إلــيك زجاجـــة ماء بارد الواحدة تلو الأخرى. في وقت لاحق عندما جلــست على مقعد لقطف الكشمش، أحسست بنسمة هواء مسائية، وانعكست آخر أشعة الشمس فوق ظهري، فشعرت بملمس حرير دافئ فـــوق كتفي. كانت أريادن تستمتع بالماء في حوض الاستحمام. نحن نملك حياة واحدة لنحياها، أنت وأنا.

رفعـــت غـــصنا لكـــي أرى كلّ عناقيد الكشمش وشرعت بقطفها.



بدأتُ بحلب أغصان الكشمش كما لو أنّها معزاة.

تـــدفّقت الحــبّات واحدة بعد الأخرى، من أطراف أصابعي إلى أصابعي ثمّ إلى كفّ يدي. عندما امتلأت يدي، أفرغتها في صندوق ثمّ عاودت قطف حبّات غصن تلو الآخر، رافعة غصنا تلو الآخر.

كانت حبّات الكشمش تتحرّك وتتدحرج عبر أصابعي إلى كفّ يدي، كما لو كانت تتجه إلى مصيرها الحتمي. شعور غريب. كما لو أن لمسها بأطراف أصابعي، هو وقت قطافها. هذا المشهد، جعلني أفكّر في كيفـــية مغادرة إحدى بويضاتي المبيض الأيسر أو الأيمن، وفي وقت محـــدّد كلّ شهر، ثم هبوطها التدريجي عبر أنبوب المبيض. تلك البويضة لها أهداب مثل أهداب العيون تدفعها للتقدّم إلى أن تستقرّ في ما يسمّى الجناح في أعلى رحمي. مي غوابو، لك في زنـــزانتك أقول: هذا الجناح هو جناحك!

قطفـــت نحـــو ثلاثة كلغ. ما يكفي لصنع اثني عشر مرطباناً من المربّـــى. مـــن الأفضل عدم الإفراط في السكّر، فلا داعي لحشد قنفذ البحر. طهي الكشمش يحتاج لحرارة 200 درجة مئويّة.

في كلّ من مبيضيّ هناك مئتا ألف بويضة. خلال حياتي لن تنضج سوى أربعمئة منها. هذا هو عطاء الطبيعة.

ســـوف أعـــدّ المربّى غداً، وسوف أرسل إليك أربعة مرطبانات. ثلاثة لهم وواحد لك. هل هذا دليل عطائي؟ لا، إنه دليل تصميمي!

الآن يمكنك شمّ الكشمش؟

عايدة

كمّادات الكشمش تخفّف من آلام الحروق.

باليــــندورم كلمة من أصل يوناني تعني *القلب الكامل*؛ تدلّ في الكــتابة على إمكانية قراءة نص ما من بدايته إلى نهايته، أو من نهايته إلى بدايته مع الحفاظ على المعنى ذاته. بالنسبة إلى يانيس فإن الكلمة اليونانية، تعني حرفياً، *طريق العودة*.

القلب الكامل ليوم ما: أنا نائم، ليس بمرحلة النوم العميق بعد، إذ مـــا زال بإمكـــاني الاستمتاع باستقباله. على السرير المرتفع في الزنـــــزانة رقـــم 73، قدماي باتجاه الجنوب الشرقي. أنتظر النوم وأســـتعيد أحـــداث النهار. أضع مجموعة من الكتب على السرير، أدوس فـــوقها بقدمـــي اليسرى، وكتفي اليسرى تستند إلى الجدار. هناك نقطة ملساء على الحائط، مكان ما يلمسه ويحتكّ به قميصي في كـــل ليلة. بهذا الوضع يمكنني أن أرى السماء، ولا يمكنني أن أراها بغير تلك الطريقة. نجوم نقية تنتظر في هذا الليل. كوكب الجوزاء في موقع الشمال، الشمال الشرقي.

أخلـــع بنطالي. أحلّ رباط جزمتي ثم أخلعها. أجلس على حافة السرير. أنظّف أسناني محاولاً ألاّ أنظر إلى المرآة. لسبب ما يسمحون لنا بالاحتفاظ بمرآة فيما لا يسمحون بالاحتفاظ بالزجاجات. عندما أستيقظ أنظر إلى المرآة وأقول صباح الخير. لا أقول مساء الخير أبداً. إنها خرافة وهمية اعتدتها منذ جئت إلى الزنـــزانة 73. عندما أُنقل من هنا سوف تنتهي الخرافة.

أســـتمع إلى الموســـيقى عـــبر الراديو. لبضع مرات قليلة ألّف مـــوزارت موسيقاه تبعا لأسلوب القلب الكامل. يرافقنا الحرس عبر

رواق يفضي إلى قاعة التجمّع، إنه أشبه برواق مسلخ مهجور. مهندسو السجون عُهد إليهم أيضا تصميم المسالخ. في موقع من الرواق يتوقّف السجّان، راعي القطيع. يحدّثني عن ابنه البالغ من العمر ثماني عشرة سنة، والذي يأمل أن يصبح بطلاً في السباحة. أعيد لفظ كلمة سباحة، فعندما أتفوَّه بها أتذكّرك. أستمع أيضاً إلى صوت آخر آت من زنزانة رقم 69: أغنية قديمة بكلمات مختلفة، وأظنّ أنها تحمل رسالة ما.

في القاعة الجماعية يعلو صوت التلفاز. يدور نقاش حاد بعد العشاء مع مورات، علي، جميس، وكادم، حول النسبة بين كمية الطاقة المستخدمة والمستخرجة من مصدر طاقة معين إلى كمية الطاقة المستخدمة للحصول على تلك الطاقة من مصدرها. لا يمكن للرأسمالية أن تتواجد اليوم من دون العائد الكبير للطاقة الكثيفة والناتجة عن الوقود الأحفوري. وهنا يبرز السؤال، ماذا سيحدث بعد أربعة عقود عندما ينفد مصدر البترول. هل ستكون الطاقة الشمسية هي ما سيتبقى فقط؟ يجلس الحارس القريب في برج المراقبة. ويستمع إلى حديثنا وبندقيته فوق ركبتيه.

ما يثير الهلوسة بشأن أي برنامج تلفازي هو مدى المساحة المتاحة للمشاركين فيه. يبدو أن القوات الأمريكية في العراق تستعمل المتفجّرات المعدنيّة الكثيفة الثابتة، القادرة على إلحاق حروق داخلية بالأفراد من دون اختراق الجسد. الحساء مائع هذا المساء.

أصبّ قليلاً من زجاجة الزيت التي أرسلتها فوق جميع صحون الأطعمة التي أتناولها. تفاوضنا بشأن حقّنا في الاحتفاظ بالزجاجات في القاعة الجماعية. بنادقهم أسرع من أي شيء يمكن أن نقطعه

بزجاج مكسور. نتشاور مع جيمس بشأن كادم، وامتناعه عن تناول الطعام الذي بدأه قبل ثلاثة أشهر. أصبحت الأمور أسهل الآن، شيئاً فشيئاً يتعلم كلّ منا، بطريقته، كيف يتحرك بإيقاع الزمن المفروض.

نخضع للتفتيش عندما نغادر المشغل بعد الظهر. لا يجدون شيئاً. سيلفيو، سمير، دوريتو وأنا نقوم بتصليح الهواتف، وأجهزة التلفزة، وأدوات أخرى. ما يُفرحنا هو أن الساعات المخصّصة للعمل في المشاغل، تمرّ أبطأ من غيرها. فنحن نغير الإيقاع كما يحلو لنا. والغريب في الأمر، أن إدارة السجن تعتمد على مهاراتنا في تصليح تلك الأجهزة.

هناك أيام لا نتبادل فيها الحديث إلا قليلا، في أثناء تناول الغذاء. اليوم هو أحد تلك الأيام.

ساعة واحدة للرياضة في باحة السجن، لتنشيط الشهيّة. وصل ثمانية سجناء جدد. يتمشّى اثنان منا خلفهم لالتقاط الأخبار، والتحذيرات، ولنحاول خلسة أن نمدهم ببعض النقود، وذلك لأن أيّ عملة تصادر منهم عند دخول السجن. وصلتني أخبار عنك.

عند دخولي الباحة، أنظر إلى السماء علّني أرى حالة الطقس عندك. أتشمم السماء وكأنها إبطك. غيوم بيضاء مبحرة بسرعة، تختفي قبل أن تظهر. كلّما استحالت زيارتك تحضر صورتك أكثر. يحيط بك لون أزرق لا يتوقف. والسماء الزرقاء فوق الباحة بعيدة كل البعد عن اللامبالاة، فهي لم تتعاون قط مع المنتصرين، بل مع المطاردين فقط. تتكرّر ذكرياتي عند دخولي الباحة لأول مرّة.

في الزنزانة، أتابع القراءة وتدوين الملاحظات. في ظلّ قلة الأحداث تصبح الكلمات مهمّة. وللمرة الأولى تتعرض طبيعة كوكبنا لمجازفة التعامل معها ببساطة، لا أكثر ولا أقل، من الفارق

المـــدر للـــربح بين القيمة الاستخدامية والقيمة التبادلية. أعود من طقـــوس الاغتسال برفقة الحارس ومعي القهوة والخبز. أمدّ فنجاني الفارغ وأطلب القهوة.

أُجفّـــف جـــسمي علـــى مهل. أغسل جسمي. أنتظر خارج الزنـــــزانة، والملابـــس على ساعدي لحين موعد طقوس الاغتسال المشروط بوصول الحارس.

أنا مستيقظ.

هـــناك ضجّة جهنمية مصدرها الضرب العنيف على الجدران. للحظة قصيرة لا أدري أين أنا. أنا نائم.

حياتي،

طشت الغسيل الأحمر بين قدميّ. أجلس على السطح، ما سمّيته أنت الغرفة الرابعة. تصلني هُنا روائح الفانيلا المحروقة من حانوت الحلويات في الشارع السفلي. رائحة مسائية لا يشمّها المرء في الصباح. ومع أن الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف فالناس يفضّلون المشي في الجانب الظليل من الشارع. طائران من الخُطّاف يتنقلان بين الأسطح. وأعرف أنّه من بين جميع الأشياء التي يمكنني أن أراها الآن، فالطيور هي التي ستجلب لك كلّ الفرح!

أصعد إلى سطح منزل رامون ومعي الطشت البلاستيكي الأحمر وحيث توجد حنفية. أملأه بماء مسروق، وأقفل عائدة. أخلع صندلي وأضع قدمي اليسرى في الماء البارد. أتساءل عن مدى المتعة التي ستمنحك إياها رؤية قدمي في الماء؟ وهل هي كتلك التي سيمنحك إياها الطائران؟ أنا طبعاً أمازحك، لا شيء أفضل من المزاح لتمضية الوقت عند الانتظار. تقول ماندا إن المزاح يسرّع مرور الزمن.

أشعر بأني مقيدة وقدمَيّ الاثنتين في الطشت. لذا أخرج قدمي اليسرى التي بدأت تبرد الآن، وأضع اليمنى. يُقال إنه بالإمكان ومن خلال دراسة القدمين، معرفة عمر الإنسان بدقة. أقول هذا ولا أستثني قدمَيّ.

في وقت مبكّر من هذا المساء جاءت آما إلى هنا. إنها نحيلة مثل عود القصب. كانت تراقبني من نافذتها، ثم خرجت لتجلس قربي وتهمس: أريد أن أخبرك بشيء غريب!

أهو مضحك أم خبيث؟

تقول: إنه مزعج. ثم تنتظر.

تابعي.

قالت: مساء الأمس شاهدت فيلماً على شاشة التلفاز عند أحد الأصدقاء. ليس بالشيء الهام، فيلم أرجنتيني على ما أظن، ولكن الممثل الذي قام بدور البطولة كان صورة مطابقة لرامي. كلّ شيء فيه كان مثل رامي! قلت لنفسي إنه هو! يلوي عنقه بالطريقة نفسها، يمشي ويسعل مثله تماماً. يخلع حذاءه مثله، وقد بدأ الصلع على رأسه في الأماكن ذاتها، مثل رامي. أصابني الجنون وأنا أشاهد الفيلم، فلا يمكن أن يكون هذا رامي. فرامي مات، ولم يمثّل في أي فيلم.

تلتقط أنفاسها لتتابع: ما لم أستطع احتماله - وقذفت بالكلمات قذفاً - هو أنني لم أحتمل أن يكون هناك اثنان من شخص رامي. إذا لم يكن رامي فريداً، إذا لم يكن هناك رامي واحد فقط، فهذا يعني أنه لم يمت!

على شفتها وذقنها بعض حبيبات من العرق. تقول: ألا تدركين ما يعنيه هذا؟ هذا يعني أن رامي مات من أجل لا شيء! وتميل برأسها على رأسي.

الآن لا بدّ من توضيحي. التقت آما رامي في الشتاء الماضي. إنه رجل يكبرها بعشر سنوات. يعمل كهربائياً، وكان بارعاً في التعامل مع الحاسوب. رأيته مرة واحدة. له شارب يفتخر به وعينان ضاحكتان. كانت آما واقعة في حبّه قليلاً، إذا كان هنالك شيء كالوقوع في الحبّ. ربما كان التعامل مع الحبّ كالتعامل مع حجم الصوت، ربّما كان بإمكان آما أن ترفع قوة الصوت! ولكنها لم تفعل.

قبل أربعة أشهر قُتل رامي. أخذوه عنوة من سريره إلى نهر الزاب وأطلقـــوا علـــيه الرصاص. لم يخبروا آما بذلك إلا بعد ثلاثة أيام، حين عثروا على جثته.

قالت لي لاحقاً، بعد أن سمعت نبأ موته: عرفتُ قبل أن يخبروني. عـــرفت ليلة أطلقوا عليه الرصاص. استيقظت فجأة وكأن بين أضلعي هـــوة سحيقة لا قاع لها... لم أستطع أن أرمي بنفسي فيها لأنني كنت أنا تلك الهوة! وبعد فترة طويلة من الصمت قالت: النعمة في كل هذا، هي أنني لم أكن قد تعودت على رامي بعد. كان شيئاً جديداً. ولولت حـــزناً عليه، حزناً وغضباً أيضاً، وصلّيت من أجله، وليس من أجلي. فقـــد كـــنت أعلم أنه ما زالت هناك أشياء كثيرة تنتظرني ويمكنني أن أختـــبرها في هذا العالم، أن أحصل عليها، أن أحبّها وأن أفقدها واحدة تلو الأخرى.

في ذلـــك المساء الذي علمتُ فيه بالنبأ المفجع، كانت آما أكثر هـــدوءاً بكثير مما كانت عليه هذه الليلة. ففي هذه الليلة أخذت تصيح عـــبر السُّطوح، تصيح نحو السماء: كيف يمكن لهذا أن يحدث، كيف يمكن أن يكون هناك اثنان من رامي؟

دعوتها لتجلس.

نظـــرت إليّ بإمعان وبابتسامتها نصف الدائمة قالت: لو أنه كان توأماً مولوداً من الأمّ ذاتها، فلا بأس، ولكنه لم يكن كذلك!

مـــشت حتى حافة سطحنا وهي تتمتم، ماذا لو أنه لم يكن هناك رامـــي واحـــد فقط، ماذا لو أن رامي لم يكن فريداً، إذاً فإنه لم يمت. كيف يمكنني أن أبكيه إذا لم يكن فريداً؟ وأنا بحاجة إلى أن أبكيه!

جلستْ وولولت بحزن. بحزن عميق. الدموع وحبّات العرق تلمع علـــى وجههـــا النحيل. هي في العشرين من عمرها. انتظرنا معاً. ثم

سكبت الماء الذي في الطشت الأحمر وذهبت لأملأه ثانية من حنفية رامون. جئت به ووضعته قرب أقدامنا.

قلت لها: اخلعي صندلك.

إذا فعلت أنت ذلك أيضاً.

إنه صغير الحجم ليتّسع لأقدامنا.

قالت: قدمي اليمنى وقدمك اليسرى، ثم توقّفت عن الابتسام ورشّت بيدها بعض الماء على وجهها.

هذا ما أردت أن أخبرك إيّاه هذه الليلة.

لك دوماً،

عايدة

في اليوم الذي سيختفي فيه الجوع من حياتنا، سيرى العالم انفجاراً روحياً لم تعرفه البشرية من قبل. قال لوركا لجيمس قبل قليل.

نور،

رأيت ألكسيس الأسبوع الماضي. لعبنا الورق لعدّة دورات. كان شريكي. كان بحوزتنا ورقتان فقط من الأوراق المتطابقة، لذا فقد استطعنا بسرعة، تشكيل ثلاث مجموعات من الأوراق المتجانسة. جلب لي لوزاً لا أستطيع التوقف عن تناوله. كانت المواد التموينية قد انقطعت قد عنا. استمع، سأقضم واحدة منها الآن، هل تسمع اصطكاك أسناني وهي تكسرها؟

منذ طفولتي كان اللوز بالنسبة لي شيئاً مميزاً، ليس كغيره من المكسّرات أو الفواكه، إذ كنت مقتنعة بأنه من صنع يدوي. اليوم، أعرف أنه يحتوي على بروتين سهل الذوبان، وأن المرّ منه، وهو المختلف جذرياً عن النوع الحلو، يحتوي على أسيد الهيدروسيانك. وهي مادة مُحفِّزة تستعمل عند استخراج الذهب ومعادن نقية أخرى لفصلها عن الشوائب، وفي أحيان أخرى، تستعمل لتعبئة قارورة صغيرة، والتي إذا ما قُبض علينا يوماً، ستنجينا من أقدار أسوأ من الموت.

كنت أعرف طبعاً عن أشجار اللوز وأزهارها البيضاء. أبيض الأعراس. وكنت أحلم أن تلك الأزهار ستزين شعري عندما أتزوج. أحلم اليوم بأنني أتزوج - لقد رفضوا طلبنا للمرة الثالثة - في غرفة الاستقبال في سجن سوز!

وكنت أعرف عن الأشجار، ولكن عندما رتّبت حبّات اللوز في دوائر فوق الطاولة، قلت في نفسي إنه لا بدّ من أن من فكّر بها

كحلوى، في الماضي، في الماضي السحيق، لا بدّ من أنها كانت امرأة، لا ليست امرأة عادية بل امرأة خارقة القدرات؛ امرأة تبحث عن حلوى لحبيبها، ولذلك كوّنت أول حبة لوز، تذوقتها، أنقصت السكر، أضافت الزيت، تذوّقتها ثانية، هزّت رأسها، أضافت رشة من الكمّون وقرّرت أن اللوز هو ما ستجهّزه لعودة حبيبها.

وهكذا، أصدرت تعليماتها إلى إحدى الشجرات. كانت هذه الوصفة أول تطعيم بالكلمات وليس بالأغصان والخرق. بعد ربيع، أزهرت الشجرة. وفي حزيران أعطت لوزاً وفيراً. كان مذاقه كاللوزة التي أقضمها الآن. بعد زمن، رحل حبيبها عبر البحار، ولم يعد قطّ، فذهبت إلى شجرة أخرى وأصدرت إليها تعليمات وصفة جديدة لشجرة لوز مرّ المذاق. كان نوّارها زهري اللون، فهو مجبول بدم قلب مكسور.

إن أسيد الهيدروسيانك يستعمل أيضاً كمضاد للتشنج، وكحقن لخفض ضغط الدم في الأطراف.

روى لي ألكسيس قصّة. ها قد استمعت إلى القصّة ذاتها من أربعة رجال كانوا جميعاً في السجن. حين يرويها الثلاثة الآخرون، يقولون إنك أنت الذي بدأ بالنباح، كاحتجاج على الإهانات التي كان يكيلها السجّان لسجين جديد، رجل كبير في السن، كان يضربه في الزنزانة المجاورة لزنزانتك. أتذكّر جيداً، أنك عندما رويت أنت القصّة، قلت إن الرجل المسن هو الذي بدأ بالنباح.

لكنني أظنّ أنك أنت من ابتدع فكرة النباح! فقد كنت تعرف ما يشعر به كل من يُنقل إلى سجن غريب، لذا فقد ابتدعت فكرة النباح من أجله. أنا شبه متأكدة من أنك أنت من قام بهذا. عندما تصبح سجيناً تحتاج إلى ساعة أو ساعتين لتستعيد فيهما أنفاسك بعد أن

يوصـــد عليك ذاك الباب الغريب، تقف أمامه! في مواجهته! واللسان خلف الأسنان.

على أي حال، فالرفاق خلف جدران زنـــزانة الرجل المسنّ، الـــتقطوا النباح، ونبحوا، وانطلق النباح من زنـــزانة إلى زنـــزانة، واحـــدة بعـــد أخرى، من دون استعجال، حتى دوّى الطابق كلّه بالنباح.

ولم يكن هذا نباحاً عادياً، كما يؤكد ألكسيس. كان نباح كلب صـــيد. كلاب الصيد تنبح وهي تجري. تنبح من أجل إيصال الخبر إلى باقـــي القطيع، تنبح ليس للتعريف بوجودها وحسب، بل أيضاً تصغي، تجيب، تحاور بعضها، ثم تطبق على الفريسة.

أخـــذ السَّجانون بالصراخ، وبالوعيد، وبالضرب على الأبواب. استلّوا عصيهم البغيضة، وقاموا بتشغيل أجهزة الإنذار. من دون نتيجة. استمر النباح، وعلى عكس الضجّة التي قام بها السَّجانون، كان النباح هادئـــاً وواثقـــاً. انـــتقل من طابق إلى طابق إلى أن امتلأ السجن كله بالنباح.

ثمّ، وفي لحظـــة ما، تغير النباح ليصبح أكثر عمقاً، أكثر حميمية، أصـــبح نباحاً ضاحكاً، هزلياً لأن الجميع أدركوا أن السجّانين اعتراهم الخوف.

كانـــت أدوات القمـــع المعهودة كافة في متناول أيديهم، ولكن الخـــوف استبدّ بهم، لامسهم، لامس ظهورهم، وصل حتى النخاع في العمـــود الفقري لكل منهم. فقد تنبهوا بسرعة لما لا يُمكنهم احتواؤه، فطـــنوا لذلك، وعندما وضحت الصورة وأدركوا أنهم مهددون لأنهم الأقلـــية، أخـــذوا بتعداد الأجساد، وبإعادة عدها من جديد. تبادلوا النظرات السريعة بينهم لتجديد الثقة والاطمئنان.

عـــندما استفسرتُ عن المدة التي استغرقها هذا، كان جوابك هزّ كتفيك. وأعلم لماذا فعلت ذلك. أردت أن تقول ما معناه: طوال الليل! ومع أن في هذا الجواب مبالغة كبيرة، إلا أنه في الوقت ذاته هو الحقيقة أمام الله.

في آخر المطاف قررتم جميعاً - وفي اللحظة ذاتها - أن تتوقّفوا عن النـــباح، ومـــا من أحد منكم، حتى ذلك السجين المتوحد العنيد، تجرأ علـــى كسر الصمت الذي حل. كنتم تعلمون جميعاً أن هذه المرّة كان الـــصمت صمتكم، وليس صمتاً فرضه السجّانون. كان يخصكم أنتم "النابحين". ولهذا استمر النباح طيلة الليل.

وحين أستذكر هذه القصّة أجدني أحبكم جميعاً، وأرسل إليك ما أرسل.



ولك أن تضعها أينما شئت.

لك دوماً،

عايدة

أستمع إلى تسجيل لمقطوعة موسورسكي *لوحات في معرض* يبث عبر المذياع. مقطوعة طويلة نوعاً ما، تتجاوز نصف الساعة. كانت هناك لحظات لا بأس بها من الصمت، لم أعدّها. لم أسمع هذه المقطوعة سابقا. على أي حال لم أستمع إليها من قبل. هذه المرّة، استمعت. في صباح اليوم التالي، قال لي مورات إنه استمع إليها أيضاً. كان انطباعنا متماثلاً مما جعلنا نضحك عند تبادل الملاحظات. كانت متماثلة بالضبط.

استلهم موسورسكي هذه المقطوعة في أثناء تجوّله في صالة لعرض اللوحات. ومن دون شكّ، فإن بعض الألحان لا بدّ من أنها كانت موجودة في ذهنه قبل ذلك. (راجعتُ ما كتب عنه في موسوعة مكتبة السجن، كان في الأربعين من عمره عندما ألفّ تلك المقطوعة، كان ذلك قبل سنتين من وفاته تحت تأثير الكحول والصرع). ولكن تجوّله الفعلي في المعرض هو ما منحه الإيقاع الذي كان بحاجة إليه.

بالنسبة لمورات ولي، لكلينا، فإن الموسيقى الصادرة عن البيانو، كانت بمثابة الطريق التي يسلكها السجين بعد الإفراج عنه. الباب الصغير وهو جزء من الباب الكبير للسجن قد أغلق للتو من خلفه، وها هو يمضي في الشارع نحو المدينة.

يتأمّل مشاهد من الحياة اليوميّة التي لم يألفها منذ أن قُبض عليه وحاكمــوه، والموسيقى تتبع إيقاع خطواته. ولنكون أكثر دقة، فإن إيقــاع ألحان البيانو، التي كانت تتبدّل تبعا لما كان يراه في الشارع، والــتي كانت تعود دوماً إلى إيقاع الانعتاق، هي بالضبط ما نتخيله، نحــن الــذين ما زلنا داخل السجن، لما يمكن أن تكون عليه صورة خــروجنا من السجن والعودة إلى المدينة، إذا حانت فرصة مثل هذا الانعتاق. عليَّ أن أنقل هذه المعلومة إلى السجون الأخرى.

ناري،

وجدّتُ كتاباً عن المحرّكات النفاثة التربينية. كان في جيب معطف اعتدت ارتداءه. كان المعطف فوق السقف الخشبي في غرفة *نوم الأصحاب* كما تسمّيها. كنت قد حشوته في فتحة كانت هناك، لمنع تسرّب ريح الشمال. تذكّرت المعطف إذ كنت بحاجة إلى زرّ كبير لمعطف أخيطه لسحر. كنت قد ابتعت الكتاب عندما كنت في قرطاجة. إنه بالفرنسية ومن سلسلة كتب ***ما أعرف***.

عنوان السلسلة هذا جعلني أبتسم حين قرأته لأول مرة، وما زال الأمر كذلك، حتى بعد سنين طويلة. فنحن نعرف كل ما يلزم أن نعرفه، ولكننا لا نعرف أن نعبر عنه بالكلمات! ما لا نعرفه، والذي لن نعرفه أبداً، هو ما الذي سيحدث بعد الآن.

التقطت الكتاب وانفتحت صفحاته على مخطط رسمته أنت على صفحة بيضاء. تحت المخطط كتبت أسماء القطع المختلفة بخطك. وفجأة بدا لي كما لو أنني أنظر إلى قصيدة حب:

"محرك للإطلاق ثم التخليص، ثم مولّد، ثم خزان الاحتراق، ثم التربينة"!

قصيدة حبّ! هذا ما تفعله حالة العزوبية الطويلة، بالخيال!

أقصّ الأزرار.

لك دوماً،

أسيتيلن

مي غوابو،

عندما كنت طفلة، كانت عندي مجموعة من الريش قارب عددها مئتي ريشة ومن 27 نوعاً. كان لكل طائر مغلّف خاص به. لم نتحدّث كثيراً عن طفولتنا، أليس كذلك؟ إنه شيء أتطلّع إليه إن شاء الله. يتحدّث الناس عن طفولتهم عندما يقعون في الحبّ، ولكننا لم نفعل ذلك. ما هو السبب برأيك؟ أظن أنني أعرف الجواب ولكنني لا أجد الكلمات. سأجدها عندما تخرج من السجن. هذه المجموعة من الريش، ريش العصافير، هي التي أثارت فِيَّ ولأول مرة، الاهتمام بتلك الكائنات النورانية وعن أصنافها. والتي كان لكل صنف منها نوع مختلف من الأجنحة، مختلف في طريقة طيّه عند توقفها عن الطيران، وبطبيعة الحال، كان لكل منها ريش مختلف عن الآخر.

كنت كلما مررت بإصبعي على طول إحدى ريشات عصافيري، أضمر أمنية في سري. ولكن ما إن بدأت دراستي في كلية الصيدلة في مؤسسة تارسا حتى افترقنا، هذه الكائنات النورانية وأنا. هذه الأيام أجد نفسي أفكر في شيء آخر، وسأخبرك به يوماً ما في رسالة.

في الماضي البعيد، كنت أظنّ أن أقرب شيء إلى الخلود هو ذلك الشعور المبارك الذي يجتاحنا بعد الحبّ. وأقول اليوم، إنه ما نسمعه من خبر يشبه الإشاعة، إشاعة عابرة ستبدأ في المستقبل، عندما سترصف الشوارع، والبنادق ستحفظ في البيوت، وعندما سيعلّم الآباء الرياضيات لأبنائهم.

لك دوماً،

عايدة

كان استغلال الجحيم من اختراع الذين انهمكوا في جمع المال. وكان الهدف من ذلك، تحويل تفكير الفقراء بعيداً عن هموم مآسيهم اليومية. أولاً بالتهديد المستمر بإمكانية أن يصبح وضعهم أكثر سوءاً، وثانياً بالوعد لكل مطيع ومخلص، بإمكانية الاستمتاع بعد الموت، بكل ما يمكن للمال أن يشتريه في هذه الدنيا، أو ربما أكثر.

ومن دون استحضار الجحيم، فقد كانت مظاهر ثراء الكنائس الفاحش، وتعنت سلطتها التي لا ترحم، والتي كانت تغاير وبشكل واضح كل تعاليم الأناجيل، تشكّل جميعها، سبباً مباشراً للمساءلة.

الجحيم أضاف نوعاً من الهيبة والرفعة على الثروات المكدّسة.

وأما اليوم، فالعقوبات قد ذهبت إلى أبعد من ذلك. وليس هناك من داعٍ لاستحضار العذاب في الحياة الآخرة. بالنسبة للمُهمَّشين، فإن عذاب الآخرة موجود هنا في حياتهم الأرضية، والرسالة هي ذاتها: إن الثراء هو الشيء الوحيد الذي بمقدوره أن يمنح معنى للحياة.

مي غوابو،

تظهـــر العصافير واحدة تلو الأخرى على أغصان شجرة التفّاح الجـــرداء، خلف مخزن تاجر الأقمشة المسن، والذي تمّ تجديده ليصبح مـــوقعا لاستلام الأدوية ووضعها حسب نظام جديد في الجوارير وعلى الـــرفوف. المـــساحة الأرضية أكبر بقليل من تلك التي تخصّ الصيدلية القديمـــة. يمكن القول إنها على الأقل، تساوي نصف طابق من سحن سوز. المشكلة أنه ليس من السهل الوصول إلى الموقع الجديد، فالطريق مدمَّـــر. حتى إن الكثير من الزبائن يدخلون من الباب وهم يلهثون من التعب قائلين: لم نتوقع أن نجدكم! ولكن، الحمد لله. الآن نعرف أنكم على حافة الكون.

فتجـــيب إدلميس: ومن يريد أن يكون في وسط العالم اليوم! ممَّ تـــتأففون؟ هـــل ذهبتم إلى طبيب؟ أم تريدون وصفة بيتية؟ كلمة بيتية أصبحت الكلمة التي تردّدها لتشير إلى أدوية الأعشاب الشعبية القديمة.

وحـــين تـــسنح الفرصـــة، تشرح لهم المعلومات عن اسم الدواء الأصلي الذي غالبا ما يحمل اسماً مختلفاً عن الاسم التجاري الذي وصفه الطبـــيب. تصف هذه الأدوية بالعلاجات التنافسية. التنافسية؟ فهي من إنـــتاج شركة أدوية عملاقة تبغي قطع الطريق على شركة أخرى؟ إنها الأدويـــة ذاتها ولكنها أقل ثمناً بقليل من تلك. ثم تنصح بشرائها إذا لم تكن عالية الثمن.

تنـــتج شركات الأدوية عدداً لا بأس به من الأدوية للحيوانات، خاصـــة للكـــلاب. وعلى علب أدوية الكلاب، توجد تعليمات حول

الجـــرعات المناسبة مطبوعة بالأحرف، وبالبريل أيضاً، ليتمكّن صاحب كلـــب الإرشـــاد الكفيف من قراءها إذا تعرّض كلبه أو - كلبها - للمرض. إن في هذا مراعاة وبعد نظر من دون شك. ولكن، على علبة مـــن دواء هوميرة وهو دواء لمعالجة مرض التهاب المفاصل المتعدد (ثمنه نحـــو ألف دولار) - تجد أن تعليمات الجرع والتنبيهات الهامة مطبوعة بـــتأنٍ ووضـــوح. ولكن لا ذكر هناك لكلمة تشير إلى كيفية الحصول علـــى - أو سرقة - الأموال اللازمة لدفع ثمنه، أو ثمن الدواء الأصلي الـــبديل المـــساوي له، والذي لا يحمل عادة أي إشارة أو اسم لشركة أدوية.

لقـــد تحمّلـــت إدلمـــيس تبعات الانتقال أفضل مما توقعت. وأثار أسلوبـــي في ترتيب الأدوية بحسب منفعتها الطبية فضولها وتحدّيها. إن هذا ليس بالأمر السهل بالنسبة إلى مبتدئ، ولكن لإدلميس خبرة طويلة تجعلـــها تـــسرح وتمرح في الصيدلية، وتتعامل معها وكأنها رسم بياني للملاحة البحرية، وهي كالربان الذي يذرع مركز قيادته ذهاباً وإياباً. ربمـــا عَليَّ أن أشتري لها قبعة ربان! أراها تبحر خلال خمس ثوان، من قارة أمراض الروماتيزم إلى قارة علوم الغدد الصماء وأنهارها الهرمونية. ويمكـــنها السفر إلى أي جزيرة صغيرة؛ مثل جزيرة مضادات الالتهاب غـــير الستيرويدية. وهكذا، ومن دون أن أدري أجد نفسي قد أهديتها ســـفينة! وهـــا هي قد وضعت طاولتها وكرسيها، حيث تجلس وتقرأ عندما لا تقف خلف منضدة البيع، وضعتها في ما أسمّيه، مضائق أدوية الأنف والأذن والحنجرة.

مـــن ناحية أخرى، أحتفظ في ثلاجة الصيدلية بمخزون من أنواع عديـــدة مـــن الـــبوظة (ليمون، مانجو، عنب، برتقال). وعند الساعة السادسة من مساء كلّ يوم أقدّم إليها واحدة، فتتناولها وهي واقفة عند

الباب، بينما تنظر نحو الأرض المهجورة مقابل مصنع البوظة. الروتين اليومي له مكانته.

لنعد إلى العصافير على أغصان شجرة التفاح الجرداء. كنت أحدّق إلى الشجرة قبل أن أقوم بفتح الصيدليّة هذا الصباح، وأفكر في الصاروخ الذي جلب لنا كلّ هذا الدمار في الأسبوع الماضي. ومن ضمن ما لحق به الدمار، بيتُ غسان الحلاق.

واحدة تلو الأخرى بدأت العصافير بالظهور. لم تطر إلى الشجرة بل ظهرت على أغصانها مثل الأناشيد. دمرّ أحد الصواريخ بيت غسان. وكانوا يدّعون أنه كان موجهاً نحو مخبأ! أما العصافير الجاثمة هناك على أغصان شجرة التفاح، فقد كانت كالإجابات. إجابات عن أسئلة من دون كلمات. وأنا أراقب العصافير، أخيراً بكيت...

لم يكن غسان هناك عندما دمّروا بيته. كان قد ذهب إلى السوق، حيث كان يلعب الورق مع أصدقائه. عندما سمع الخبر انهار، ووقع على الأرض من دون صوت.

في اليوم التالي، ذهبتُ معه إلى موقع الدمار. كان بالإمكان تحديد عدة محاور مركزية حيث تحوّل كل شيء في محيطها إلى غبار محاط بشظايا صغيرة. في ما عدا المواسير والأسلاك لم يكن هناك أي شيء يمكن التعرف إليه. كلّ ما قد جمعه على مرّ السنين اختفى من دون أثر، وفقد اسمه. إنه فقدان ذاكرة الأشياء لا ذاكرة العقول.

مشى بضع مئات من الأمتار في طريقه نحو الآثار القديمة، حيث كان إطار إحدى النوافذ لا يزال إطاراً لنافذة؛ حتى ولو أنه فقد الزجاج، وحيث الكرسي ما زال كرسياً حتى لو أنه فقد قائمتيه. هناك، في الحمّام، وجد ما كان يفتش عنه؛ مكنسة!

بعدها قفلنا عائدين إلى ما كان بيته قبل أيام قليلة. وبدأ بالكنس، من دون أن يحدّق إلى قدميه بل إلى البعيد. نبهني حدسي ألاّ أتدخل، وأن أعامله كالسائر في نومه. لا أدري كم من الوقت استغرق هذا، ولكنني أدري أنه غطى حياة بأكملها.

كان يكنس في الموقع ذاته؛ من دون أن يحرّك قدميه. بعد مدّة توقّف ونظر إليَّ. وهذا ما قاله: كنت أكنس الشعر الذي يقع على الأرض بعد حلاقتي لكل زبون. كان هذا من أولى القواعد التي تعلّمتها كحلاق.

أخذت يده، وهو لا يزال يمسك بالمكنسة. ربما سأعطيه مستحضر الناردين. كانت هذه ردّة فعلٍ طبيعية بسبب مهنتي، لأخلصه من بؤسه.

في ثنايا الزمن المظلمة، قد لا يوجد أي شيء غير اللمس الأخرس لأصابعنا.

ولأعمالنا أيضاً.



لك دوماً،

عايدة

حلـــم: العالم مفتوح ككتاب وأنا أنظر إليه. الزاوية اليمنى من أعلى الصفحة اليمنى، مطوية نحو الداخل لتشير إلى الصفحة. وهناك، علـــى ذلـــك المثلّث من الورق المطوي كُتب: معاني الماديّة – كانت أنيقة ومتكاملة مثل الكسريات الرياضية.

وفي الحلـــم كنت في غاية الاطمئنان والسعادة، مما جعلني أنسى تدوينه.

حياتي،

تكـــرّرت هذه الحادثة مرّتين. الأمس كانت المرة الثانية. حصلت علـــى تصريح لمنطقة تورا لأتمكّن من الذهاب إلى بلدة كوارت. حال وصـــولي إلى القمّـــة، توقفت، لأنني أحبّ المشهد من ذلك الموقع – فالتلال تشبه غطاء سرير قفز عنه أحدهم للتو – وأيضاً لأننا توقّفنا هنا مـــرّات عديـــدة. مـــن جهة اليسار كانت هناك بناية من حجر، بابها مفتوح، ولا يمكن إغلاقه. بعدها بقليل توجد مزرعة صغيرة فيها بعض الغـــنم وغسيل على الحبال، مما يدل على أن هناك عدداً من الأطفال، ولكنني لم أرَ أحداً منهم.

أقف قرب البناية الحجرية المهجورة وأرنو إلى ما بعد التلال، إلى النهر البعيد. يقترب مني كلب بحجم كلب من كلاب الصيد الصغيرة. كان ودوداً، يشمّ يدي وذيله يدور بسرعة ذكرتني بخلاط البيض. على حين غفلة يسمع شيئاً لا أسمعه أنا، فيركض خلف البناية. يدور حولها عدة مرات، ثم يختفي. في أثناء عودتي إلى السيارة أعبر من أمام الباب، أنظـــر إلى الداخل، ها هو هناك، يلهو مع كلبة أكبر منه حجماً ولونها يميل إلى البياض. أراقب. لا يُوقفه شيء، فهو كالمياه الجارية إلى أن تجد سطح البحر. أقفل عائدة بمزاج أحسن مما كنت عليه.

الأمـــس – وقـــد مضت أربعة عشر شهراً على تلك الحادثة – أسلك الطريق ذاته، وأتوقّف في المكان ذاته، وصدِّق أو لا تصدِّق، فقد كـــان الكلب ذاته هناك! شعرت أنه ربما تذكّرني. أجلس على صخرة منخفـــضة ويجلـــس هو عند قدمي محركاً ذنبه، وهو يضرب الحشائش

بإيقاع رتيب. بعد قليل، ينهض ويغادر المكان. أنظر إلى ما بعد التلال، إلى النهـــر. أراقب الغيوم، وفجأة ينتابني شعور ما، حدس، أعرف تماماً ما سيحدث، أعرف، وكأن ذلك نتيجة مباشرة لما كنت أتعمّد التفكير فيه.

أقـــف، وأسير نحو المزرعة حيث كان الغسيل. أسير على منحدر صـــخري. وهـــناك، على الحشائش البرية بين صخرتين، كان الكلب يلهـــو. ليس مع الكلبة ذاتها، ولكن مع أخرى، داكنة اللون، حجمها أصغر ولكن نباحها بدا بهيًّا.

أقفل مسرعة إلى السيارة وأنا أرتجف، أجلس على مقعد السائق، وأضـــع رأسي على المقود وأبكي. أبكي. أنام وأنا أبكي. لا أدري كم يمضي من الزمن. توقظني شاحنة عابرة...

رسالة غير مرسلة

أجلس خلف طاولة إدلميس. اليوم تفتح الصيدلية أبوابها حتى منتصف الليل، وذلك من أجل تأمين أدوية الطوارئ. الوضع هادئ. هناك شاحنة غادرت مصنع البوظة للتو. الآن، وفي مكان آخر، يرافقك حارس إلى زنزانتك. أقف وأسير نحو الباب. أفتحه لأراقب سماء الليل، يتملّكني شعور بأنني أفعل هذا في اللحظة ذاتها التي تقوم أنت فيها بالوقوف على مجموعة كتبك لتفعل الشيء ذاته. أسأل نفسي، عمّا عساه الليل يقدّمه لنا؟ لا أظن أنه وعد، بل إنه شيء أكثر آنيَّةً؛ شيء مباشر يشبه راحة الضمير. أريدك أن تنام نوماً عميقاً. الليل بارد جداً.

أعدّ القهوة ويدقّ جرس الباب. هناك رجل مسنّ لا أعرفه. قال لي إن زوجته قد تعرضت للحرق بينما كانت تطبخ أمام نار مكشوفة. كان يلهث كمن كان يركض. سألته، كم مضى من الوقت على ذلك. أجاب: نحو الساعة. لقد أحضرني أحد الجيران بسيارة.

في أي مكان حرقت زوجتك؟

في يدها اليمنى، وعلى وجهها.

وجهها؟

نعم، فقد انحنت إلى الأمام لتتحقق من نضج البطاطا بالشوكة.

هل انسلخ جلدها؟

لا، إنه أحمر وهناك بعض التقرّحات. وقطب عينيه عندما قال ذلك.

هل وضعت ماءً بارداً فوراً؟

وضعت يدها في سطل من الماء، ووضعت قطعة قماش مبللة على وجهها.

رددت: ماء بارد، ماء بارد، ماء بارد. هذا جيد.

كـــان قـــد وصل بسيارة ولكنه ما زال يركض في ذهنه – لهاثه سـريع – كمن يرغب في اللحاق بالحروق التي أصابت زوجته بسرعة هائلة ومن دون إنذار.

إن يدها هي الأسوأ. ماذا يمكنك أن تصفي لها الآن؟

ســأعطيك بخــاخ لتخفيف الألم، ثاني أكسيد نترات الفضّة، وبعض الضمادات ليدها، وكذلك مطهر الحروق اسمه ليدوكاين. فور وصـــولك إلى البيت عليك أن تقوم بعمل شيء آخر، عليك أن تأخذ إبرة وأن تخز مواقع الحروق. لا تخز التقرحات. إذا تألمت، إذا شعرت بالوجـــع فهـــذه إشارة جيدة، جيدة جداً، إذ يعني ذلك أن الحروق ليـــست عمـــيقة. ولكن إذا لم تتألم، فعليك أن تأخذها، وبأسرع ما يمكن إلى مستشفى.

أرجو ألاّ يسمح الله بذلك.

الأغلب أنه لن يسمح.

عندما غادر الرجل المسنّ رافعاً ياقة قميصه ومتدثّراً بشاله، كانت أنفاســه قد استقرت بعض الشيء، وأصبحت أكثر انتظاماً. سار ببطءٍ نحو سيارة جاره، وكأنه الآن قد سبق حروق زوجته.

أجلـــس هـــنا وأكـــتب إليك. تحيط بـــي عصارات، خلطات، أعشاب، علاجات، وسموم، كلّ منها في مغلفات خاصة مع إرشادات دقـــيقة حـــول كيفية استعمالها بشكل صحيح، جميعها معدّة لتخفيف الألم. ولكـــن هناك آلام لا نرغب في تخفيفها! وربما هذا هو شيء آخر يذكرنا به الليل.

كـــان هناك مئة منا في جنازة فيرا. فيرا الشهيدة. كلمات كثيرة أشـــادت بها. كان والداها مندهشين وفخورين. كان جسمها طاهراً، وكـــان بالإمكان أن توارى الثرى بثيابها. عفَّر الكثيرون منا وجهوهم بالتـــراب الموجود حول القبر حين أنـــزل جسدها. ولكن لم يبكِ أحد منا.

بعـــد ذلك جلسنا في منـــزل عيسى لنتحدّث عنها. نتابع حديثنا حتى وإن كنا صامتين. يمكن للمرء أن يتحدث عن الموتى بصمت. ربما يشعر الموتى بارتياح أكثر في الحديث الصامت. ماتت فيرا. ذهبت، ولا شيء يُحضِّرنا إلى مثل هذا الغياب.

جلـــسنا في دائرة محكمة. وكان الرحيل - رحيلها - يحتلّ نقطة المركـــز. نعم في دائرة هندسية بكل ما للكلمة من معنى. كنا قد تركنا قـــبرها قبل ثلاث ساعات. ولكن، تهيأ لنا أنه كان قبل ثلاثة شهور. لم يغـــب عـــنا أي تفصيل - ببساطة - فقد حدثت أشياء كثيرة في تلك الـــساعات الثلاث. بين فترة وفترة، كان أحدنا يكتشف أن هناك شيئاً آخر قد غاب، غاب معها، وأنه من الآن فصاعداً علينا أن نعتمد على أنفسنا فقط. ربما لهذا السبب كنا نحتشد في دفء الدائرة.

أسمع طرقات خفيفة على الباب بينما أكتب إليك، لحق بها صوت مـــا. ربّما كلب. نهضت وسألت بصوت عال: هل هناك أحد؟ سؤال سخيف، فقد كان علي أن أسأل، من هناك؟

أنـــا مريض، أتى الجواب. فتحت الباب. شاب غريب، ضعيف البنية. تراب متناثر يغطي كتفي معطفه، وقليلٌ منه على شعره القصير، كما لو أنه سقط.

حالما رآني أخذ يصرخ بغضب، لماذا لم تفتحي الباب حين طرقته؟ كنت أنتظر لساعات! أقول لك لساعات في البرد! وكلّما ازداد صراخه

ازداد غضبه. تابع صراخه: لا يحقّ لك ارتداء هذا المعطف الأبيض، ثم مال جسمه إلى الأمام ووقع على الأرض.

انحنيت لأفحصه عن قرب، فقد ظننت أنه مجروح. نظر إلى عينيّ ثم همس: أعاني من داء السكّر! وغاب عن الوعي. صفعت وجهه ولكن من دون نتيجة. هل كان يعاني من ارتفاع في السكّر- أم من نقص فيه؟ كان علي أن أقرر بين أن أعطيه الأنسولين أو السكّر. قررت إعطاءه الأخير بسبب غضبه غير المبرر، وإذا كان يعاني بالفعل من هبوط في سكّر الدم، فلا بد من أن أسرع؛ فكل دقيقة لها حسابها.

أحضرت إبريقا من الماء الدافئ ووضعت فيه خمس قطع من السكّر وحركتها بسرعة حتى ذابت، ثم رفعت رأسه وبكل هدوء فتحت فمه وأنا أصلي. بدّلت وضعي، ووضعت رأسه على حضني وفركت عقدة حنجرته، فبلع، مرة، مرتين، ثلاث مرات.

بينما كنت أنظر من خلف الباب إلى النجوم، معترفة في تلك اللحظة أن الحياة كانت بالنسبة إلي هي السكّر. لا شيء سوى السكّر! فتح عينيه.

بعد بضع دقائق عاد ليقف على ساقيه. قال إنه طُرد من أحد الباصات وفقد كلّ أغراضه، شعرت أنه لم يكن على استعداد ليقول أي شيء آخر، فلم أسأله أكثر.

اقترحت أن أجري له فحص دم. تناول رزمة من النقود من جيبه وقال إن عليه أن يشتري الأنسولين، وجهاز فحص سكّر الدم.

عندما أحضرت له ما أراده، وخز طرف إصبعه، وبكل عناية وضع نقطة من دمه على الجهاز. انتظرنا لنرى ما سيؤول إليه لون تلك الدائرة الصغيرة التي كانت بحجم الخنفساء الحمراء المرقّطة الجناحين.

ولدهـــشتنا فقد تحولت إلى ما يقارب اللون الأبيض. لقد أصبح السكّر عنده طبيعيا.

قال: يتهيأ لي أنه لا بدّ من أن أشكرك. كانت لديه لكنة أجنبية، ومرة أخرى لم أحقق معه.

كلّ شيء فيه يشي بالتردد والدقة. كأنه وصل إلى استنتاج، وهو أن كل ما يقال بجرأة وبصراحة، هو بالتأكيد كذب.

رافقـــته إلى الباب، راقبته وهو يعبر الأرض المهجورة. كان يمشي كمـــا يمـــشي الناجون. من اعتاد النجاة من الكوارث، يمشي من دون الالتفات إلى الخلف.

كنت بصدد أن أخبرك – قبل أن يقاطعنا – أننا بقينا عند عيسى، ونحن نجلس في دائرة. ونتذكّر صوت فيرا، نتذكّر قرطيها، وطريقتها في حمل البندقية وكأنها باقة من الزهور، نتذكر ضحكتها، وعادتها في دفن يدها في شعرها الكثيف وكيف كانت تشده عند نفاد صبرها. نتذكّر الـــصداع النصفي الذي كانت تعاني منه. نتذكّر حبّها للأناناس. أخيراً صمتنا. لقد مضت عدة ساعات على جلوسنا هناك.

عيسى هو الذي كسر الصمت. قال: بعد قليل سنتفرق، سيذهب كل منا، وحيداً أو مع غيره، إلى أماكن مختلفة، وستكون فيرا هناك قبلنا في كـــل مكـــان! وفي كل مرة ستغادر المكان قبل أن نراها، حتى وإن وصلنا مبكرين!

عندما قال ذلك، بكيت، بكيت لساعات.

قـــبل مدّة سمعت قولاً مأثورا تأثرت به أكثر من قسم الزواج. لا أدري مـــصدره. ولكن ربما، لأن في القول ذكر لنهر، وقد أتى (وهنا تـــوجد بقعة حبر متفشية والكلمة غير مقروءة). يقول: إذا ذهبت إلى أعلى النهر، اقطف لي زهرة، وإذا متّ قبلي فانتظرني هناك، بعد القبر.

وهـــذا ما أريد أن أقوله لك الليلة، إذا ذهبت إلى أعلى النهر... ســـأبقى هنا لأنهي هذه الرسالة. بعد قليل سيأتي الفجر. سأغلق باب الـــصيدلية الآن، وسأمـــشي إلى البيت تحت سماء جليدية لا بدّ من أن تتغيّر!

لك دوماً،

عايدة

"يأخذ التاريخ خطاً تصاعدياً بالنسبة إلى أصحاب السلطة فقط، حيث يشكّل يومهم الآني القمّة دائماً. أما بالنسبة إلى الأشخاص العاديين، فالتاريخ سؤال لا يمكن الإجابة عنه إلا بالنظر إلى الماضي والمستقبل، ومن ثم تكوين أسئلة جديدة.

ماركوس

ناري،

كنت أظنّ في الماضي أن أصدقاءنا من أصحاب القططة ومحبّيها؛ يميلون نوعاً ما إلى الكسل. وأنهم من المعتدين بأنفسهم قليلاً. وكنت أفضل عوضا عن أن تكون لديّ قطّة تنام عند قدمي لو أنه كان عندي شيء آخر، مختلف كثيراً، أضعه تحت وسادتي؛ أو وسادتنا.

طبعاً، قمت بالتربيت على القططة من قبل، وطبعاً أحببت سماع خرخرتها، وطبعاً كنت أعلم أن لديها تسع حيوات، وأنها كانت تنتظر أجداد أجدادنا ليقدموا إليها الطعام. ولكن، اليوم، قلت لنفسي، الوضع يختلف ولا يوجد مكان للقططة. المكان غير موجود، وليس الوقت، فالقططة تحيا عبر الأزمنة دون اعتبار لها. المكان غير موجود.

الآن، ومنذ عشرة أيام أو ربّما منذ أسبوعين، أصبحت عندي قطّة بيضاء. هذا ما حدث: كان على وداد السفر عبر المحيط (لماذا؟ هذه قصة طويلة سأرويها لك، ونحن جالسون قرب البحر، نراقب أطفالنا وهم يبنون القلاع الرملية) وهكذا طلبت إلي الاعتناء بكوينغ.

قالت: سأعود بعد ثلاثة أيام، ليس هذا بالوقت الطويل. قلت: لا بأس. والآن، يبدو أنه لا يوجد لديها أي سبيل للعودة.

حالما أفتح الباب أجد كوينغ هناك. تلاحقني من زاوية إلى زاوية. تنام قربي على الديوان، وعندما تكون في حالة استرخاء، تمضي الساعات في الاعتناء بنظافتها. القططة الوسخة كالسكارى. هكذا كانت عمتي تتمتم. إنها تمرّ في مرحلة التأقلم على العيش معي. عند المساء، تقفز فوق الديوان، فقط عندما أطفئ النور، وليس قبل ذلك

أبـــداً. وحين أضع لها الصحن على الأرض، تشمه وتنتظرني مع سابق إصـــرار - تنتظرني لأجلس إلى الطاولة - قبل أن تبدأ بالأكل. تعرف قبلـــي مـــتى سأقف لأذهب وأشرب الماء من الحنفية. لديها طقوسها الخاصة للاعتناء بنظافتها. ترفع إحدى كفيها البيضاوين وتلحسها حتى تلمع، ثم تدير وجهها إلى الناحية الأخرى. وعلى كفّها المنتصبة، التي لا تتزحـــزح كالوتد، الوتد الذي يستعمل لربط الخيول، تفرك جزءاً من رقبـــتها، ثم جـــزءاً من كتفها. وتعيد الطقوس ذاتها باستعمال الكف الأخـــرى، والـــتي لا تتزحزح هي الأخرى... أراقب. هل تعرف ماذا أراقب؟ أراقب غيابك يغسل ذاته بلسانه الخشن.

لعبـــنا الـــورق البارحة. كنا ثمانية. في اللعبة الأخيرة، ومنذ بداية اللعـــب ظهرت ورقة الثلاثة الحمراء في أعلى مجموعة أوراق الأرض، فتجمّدت المجموعة، وهكذا كنا الرابحين.

عايدة

حجبوا الرسائل عنّي لمدة شهرين تقريباً. بعد ظهر اليوم، خلال فترة العمل في المشغل، قدّم إليّ دوريتو نسخة طبق الأصل عن لوحة كانـــت معلّقة على حائط زنـــزانته. طلب إليّ أن أحتفظ بها إلى حين استلامي رسائلك من جديد، وسوف تصل. وها هي الليلة هنا، على حائطـــي، بين المرآة وخارطة أستراليا. إنها لوحة من رسم جورج دو لاتـــور لامرأة شابة تزور سجيناً في الليل. يجلس في زنـــزانته، فيما هـــي واقفـــة وهـــي تحمـــل شمعة بيدها اليمنى. وبفضل نورها كان بإمكانهمـــا تفحّـــص بعـــضهما، حتّى إنهما نسيا الابتسام. أما يدها اليسرى فكانت وكأنها قد انتهت للتو من اللهو بشعره.

أريد أقبّلك مع ما أرسله إليك اليوم.

نمشي أنا وأنت على منحدر التل، إلى ما بعد شجرة التوت. كان الجـــو حاراً اليوم، والغيوم البيضاء منخفضة، لطيفة. ها نحن قد اجتزنا المتجـــر الموجـــود إلى يـــسارنا، والذي يبيع الأحذية والحقائب - كنا نـــضحك دائماً على هذا - يبيع أيضاً الأباجورات الخاصة بالمصابيح! بعـــد نحو خمسين متراً نصل إلى متجر بقالة افتتح حديثاً. لقد رأيته من قـــبل، ولكـــن لم يكن لدي وقت لأتوقّف عنده. صاحبه رجل يُسمي نفـــسه غارســـيا. إنه كوخ ذو سقف من الحديد المموج، غارسيا لا يـــسكن هنا. ندخل. المتجر متخصص بالأطعمة المستوردة مباشرة من إسبانيا. الفاصوليا البيضاء على سبيل المثال؛ هناك صندوق كامل منها. تـــدفن يدك فيها حتى معصمك ذي الندوب البيضاء، ثم ترفعها وتترك الحـــبوب الـــتي كانت تلمع كالخزف، تجري من بين أصابعك. وكان يوجد هناك أيضاً سمك القد المجفف، صندوق الملح، وقلائد من البصل الأحمر الحلو.

يـــراقبنا صاحب المتجر. نتفحص البضاعة وهو بدوره يتفحصنا، ونبتسم جميعاً. رجل في أواخر الستينيات، مدور الوجه، يضع نظارات سمـــيكة. أســـأله عن علاقته المباشرة مع إسبانيا؛ فيقول: أمي تقطن في إشبيلية. يفاجئني جوابه، فلا بد من أنها متقدمة بالسن. يقول أيضاً إنها هي التي تقوم بشراء البضاعة لي، وتشحنها أيضاً.

كـــنتَ أنت قد خرجت من المتجر، وأشعلت سيجارة متمنياً أن تشاهد غزالاً على الهضاب الشرقية.

أســـأله: هل أتت أمك إلى هنا من قبل؟ يقول: إن كبر سنها لا يـــسمح لها بالسفر مسافة طويلة، ولكنها ماهرة جداً في الشراء. تبدو عيـــناه غـــريبتين وراء نظارته السميكة. نظرات مركزة وحالمة في آن واحد، كأنها تنظر إلى شيئين في الوقت ذاته: تنظر إلى كل ما هو أمامه، وأيضاً تنظر إلى الكلمة أو الكلمات التي تشرح ماهيتها. يضيف قائلاً: لا أقدر أن أتصرّف من دونها. ألم تلاحظي أنّه حين يمتد العمر بالنساء يـــصبحن أقـــلّ نسياناً من فترة شبابهن؟ من هذه الناحية فهن بعكس الـــرجال، فمع تقدّم العمر يزداد نسيان الرجال. فأنا اليوم أكثر نسياناً من أمي... وهذا شيء طبيعي.

أخالفـــه الرأي وأقول له إن لي ذاكرتي جيدة. يحرّك كفّيه بعفوية ملمحاً وبأدب، إلى أنني لم أعد صغيرة.

مي غوابو، كم نبلغ من العمر؟ لقد كبرنا وشخنا مرات عديدة، هل ستمحى ذاكرتك قبل ذاكرتي؟ على أيّ حال أحدثك عن هذا كلّه لأقبّلك عن بعد.

والآن يقـــول شيئاً آخر يفاجئني: ليس هناك شيء مثل السجن - يتمـــتم - من أجل تطوير وتنشيط الذاكرة. هل تعرف ذلك بالخبرة؟ سألته بهدوء. وبدلاً من أن يجيبني، سألني إذا كان الانتقال إلى الصيدلية الجديدة سهلاً؟ يسألني هذا ليعلمني أنه على علم ببعض الأمور. محاولة المراوغة هذه، هي أيضا من الصفات المميزة لسجين سابق.

أنظـــر إلـــيه بتمعن، وبسرعة البرق أستشفّ ما تخفيه عيناه. كان تقريباً أعمى، أنا متأكدة.

ســـألني: هـــل تعرفين ما هذه؟ إنها حلوى البيبليا. إنها من صنع إشبيليا. يحمل قطعة من "البسكويت" مغلفة بورق أحمر وأزرق وأبيض. يـــردّد بيبلـــيا، البايبل، أو الكتاب المقدّس، فهي كالمنّ الذي هبط من

السماء على الصحراء. المنّ المكون من اللوز، أحلى قطعة "بسكويت" على وجه الأرض.

يزن لي 500 غرام من البيبليا، ثم يضعها في كيس ويعطيني إياها. وزنها على ميزان محمول، تحسّس مكان الإبرة. لم ينظر بعينيه. أعود إلى الخلف محاولة الاعتذار عن أخذها.

يقول ملحاً: لا يمكن أن ترفضي هدية. هذه تقدمة مني.

لماذا؟

يقول: لقد نسيت، وأنتِ قد نسيتِ. ربما سنسأل أمي في يوم من الأيام. أوافق، وأدفع ثمن قلادة البصل الأحمر التي كنت قد انتقيتها.

وأنتَ لم تكن في الخارج، لأنك لم تكن هناك أصلاً. لأنك في زنزانتك رقم 73.

وهكذا أصعد الهضبة وحيدة، أفكّر في ما عساك أن تقوله حول هذه القصّة. لقد نسيت "البسكويت" تماماً.

عند عودتي إلى البيت، أضع الماء على النار ليغلي ولأصنع شاياً وحينها أتذكّرها. أنزع الغلاف عن واحدة منها. إنها بيضاوية وبلون الخبز، بحجم اللسان، لسانك أو لساني. تقول ورقة المحتويات: بولفورون أرتيزانو دو ألمندرا، رائحة بسيطة من القرفة، الوزن 32 غراماً لكل واحدة. أقضم قطعة صغيرة لكلينا. طحين القمح المخبوز وغبار اللوز الحلو والقليل من الدسم يبطّن سقف الحلق ويلتصق بأعلى الحَلقْ، بينما في الأسفل تتناثر على لساننا جزيئات من اللوز المحمص وتتحرّك بين الأسنان لنقضمها.

لتتمكن من وصف عملية مضغ البيبليا عليك أن تتخيّل هذه الصورة: تخيل غطاء من اللوز فوق رأسينا، ونحن نحاول شده إلى

الأســـفل لنحتمـــي به من الرمال والرياح والمطر، أو من ضوء كشّاف حارس السجن.

لقـــد أهدانا غارسيا البائع 12.6 غراماً من البيبليا لي و6 غرامات لك، هذا إذا وصلتك. وإذا لم تصل، تذكّر أنني قبّلتك.

عايدة

كنتُ في سوز الأسبوع الماضي. وقفت تحت أنوار الشارع، تلك الـــتي سوف نمشي تحتها حين يُفرج عنك. بدا كل شيء مهشّماً، عدا حراس السجن والأسلاك الشائكة. كلّ شيء بدا مؤقتاً.

يعمل جميع المعتدين أقصى جهدهم لجعلنا ننسى أنهم قد وصلوا للتو.

لكي ألمح السماء، أقف فوق سريري المعلّق. السماء تذكير بما يمكن أن ننساه مؤقتاً. مثلاً: تقدّر قيمة صناديق الاستثمار الخاصّة المتوفرة للمضاربات المالية اليوم بأكثر من عشرين ضعف مجموع إجمالي الناتج القومي للعالم!

إن الرياح، التي بالإمكان مشاهدتها بلطف من خلال الغيوم، كافية للتذكير بأنّ وقتا مثل تلك الأوهام قد بدأ ينفد.

الحزمة الثالثة من الرسائل

علـــى الـــشريط القطني الذي يربط الحزمة كتبت ثلاث كلمات بحبر متفشٍ:

أرض وبيت = وطن

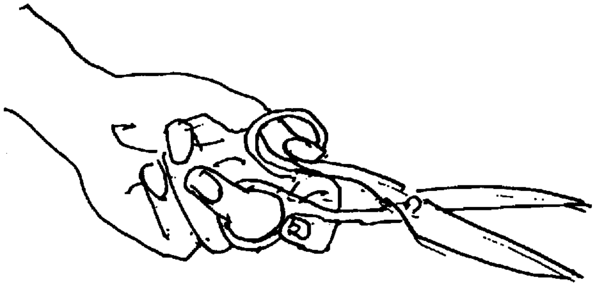
حبيبـــي،

عـــندما يأتي أحدهم ليشتري دواء كان قد وصف له، فهو يتطلّع إلى العـــثور على شيء من التنظيم. لأن كلّ شكوى لها طابع مشوش. لـــذا تأخـــذ الأرقام والرياضيات في الصيدلية، من جديد، طابع الجدّ والتسلسل الذي كانت عليه على لوح المدرسة.

كم كبسولة في الجرعة الواحدة؟ كم جرعة في اليوم؟ هل أتناولها في أثناء الوجبة؟ كم من الوقت قبل الوجبة، أم بعدها؟ مدّة الأيام؟ تُعاد الإجابات عدة مرات، وتُكتب بقلم حبر جاف على علبة الدواء. أسمع الناس يعيدون الأرقام لأنفسهم وهم خارجون. حبّتان عند الاستيقاظ، ثـــلاث خلال وجبة منتصف النهار، اثنتان قبل النوم. يردّدون الأرقام وكأنهـــا رقم هاتف، فهكذا يا حبيبـــي وبهذه الطريقة يمكننا أن نحافظ على المسافة بيننا وبين صمت ما لا يمكن التبوء به.

هـــناك رجل لا أعرفه، يحوم حول الباب الخلفي للصيدلية. كان يلفّ شالاً طويلاً حول رأسه، في العقد السادس من العمر. سألته: هل تـــبحث عن شيء ما؟ أجاب: أتمنى كلّ الخير لك ولجميع من حولك. أبحـــث على علب من الكرتون. ما حجمها؟ قال: من جميع الأحجام. هل تريد أن تصنع منها بعض الأثاث؟ هزّ رأسه نفياً ولأول مرّة ابتسم. أتريد أن تحرقها؟ قال: أنا حكواتي. قلت: سأرى ما عندنا. عدت إليه ومعـــي علبة كبيرة وعدد لا بأس به من العلب الأصغر حجماً داخلها. شـــكراً لك. ماذا تريد أن تفعل بها الآن؟ أولاً، سأثقب بعض الفتحات في كـــلّ منها ومن ثم سأضع حكاية داخل كلّ واحدة، لا بدّ من أنك

تعرفين أن الحكايات المتروكة في العراء تبهت وتندثر. نعم، فالحكايات تحـــتاج إلى الإقامة السرية، ولا يمكنها العيش من دون هواء... سألته: ماذا تفعل حقيقة؟ قال: أربّي الصيصان.



من الصيدلانية التي بدأت السنوات تداهمها، ومن عائدتك.

مي غوابو،

أرسلت إليك اليوم الجوارب (4 أزواج) التي طلبتها. اثنان منها مخطّطان أفقياً. سيصبح رسغاك مثل رسغي الحمار الوحشي. وأما الآخران فهما أبيضان من دون رسومات. اشتريتها الأسبوع الماضي. كانت في الخزانة مع ثيابك الأخرى. لم أرسلها بالبريد، أرسلتها مع المحامي. أخبرني حالما تستلمها.

تشترك الأزرار والحبوب بشيء خاص. هل تدري ما هو؟

سأعطيك مفتاح اللغز، انظر إلى يديك!

تقول إنك تلصق رسومات الأيدي التي أرسمها لك على الحائط، تحت الشباك مباشرة. وتقول إنها من هذا الموقع، بإمكانها أن تطير إلى أي مكان تريده.

إنها تودّ أن تلمسك. تودّ أن توجّه نظرك إلى أشياء حين ترغب أنت في تفاديها. تريد أن تجعلك تضحك. ماذا لو ضحك الأطفال بدلاً من البكاء عند الولادة؟ إنه سؤال غريب لأننا نعلم أنه يتناقض مع الحياة.

ولكن، في حياتي أنا، تودّ يداي أن تضحكاك. انظر إلى إبهاميك. إنهما الإصبعان اللتان تربطان بين الأزرار وحبّات الفول. فإذا أردت قشر قرون الفول الأخضر أو فكّ الأزرار، فستجد أن الإبهام تقوم بالحركة ذاتها!

هذا المساء، كنت أجلس متربعة على السطح مع آما، نقشر قرون الفول، عدة كيلوغرامات منها. ذهبت لأنشر الغسيل، ووجدت آما

هناك مع سلة كبيرة من الفول. كانت قد بدأت بقشرها ولكنها كانت لا تـــزال في الــبداية. كانت نحيلة، أكثر من أي وقت مضى. وكانت حـــركتها واهـــنة. هززت رأسي ناظرة إلى الفول، وكصيدلانية قلت معلّقة: إنها غنية بالبروتينات والأميدات. قالت: ساعديني كي لا نموت جوعاً.

آمـــا ليست كسْلى، ولكن، ربما بجلوسي قربها، استعادت ثقتها بالمستقبل وبإمكانية حلول فصل الشتاء القادم.

جلـــست قربها، وبدأت العمل بسرعة. كلما أفرغنا محتويات قرن كـــنا نرميه في وعاء موجود دائماً على السطح. الجميع يستعمله عوضا عـــن آنية لسقاية النباتات، وها هي الآن تضعه قرب قدميها. قرن هذا النوع من الفول يميل نحو بياض مرقش بنقط رمادية وبنية، وعندما تنظر إلـــيه وهـــو في الوعاء يتراءى لك أنك تنظر إلى ضمادات قديمة. تطير السنونوات على ارتفاع منخفض. الجو مغبر. كل شيء بانتظار المطر. مـــن وقـــت إلى آخر نتبادل النظرات ولا نتكلم. نسمع صفارة إنذار سيارة عسكرية.

همـــس آما: آمل ألاّ أنجب أبداً. إنها القسوة بعينها أن نأتي بروح أخرى إلى هذا العالم.

هل تظنين أنكِ حامل؟

حرّكت رأسها مشيرة بالنفي.

كـــان وعـــاء الغـــسيل المعدني الأبيض بيننا، نضع فيه حبّات الفول.

تابعتْ قائلة: التقيت شقيق رامي الأكبر، وأعطاني كتاباً كان قد وجده بينما كان يرتّب أغراض رامي القليلة بعد موته. قلتُ له: لا أريد أن أعرف شيئا. هزّت آما رأسها.

في البداية، كانت حبات الفول التي فككناها كالأزرار تصدر صوت صدى حال اصطدامها بالوعاء المعدني. الآن، تقع الحبات بصمت، فالوعاء قد امتلأ حتى النصف. الحبوب من النوع الذي يُسمى *كلية الديك*.

تابعـــت آمـــا قولها: بيَّن لي شقيق رامي، أن رامي كان قد كتب اسمـــي على الكتاب وربما كان ينوي أن يقدّمه إلي كهدية. إنه كتاب أشعار، وكاتبته اسمها بيجان ماتوور.

تقـــف آما وتعبر السطح، ثم تعود حاملة كتاباً. عندما جلست ثانية، فتحته وقرأت بصوت عال، بهدوء وعلى مهل، وكأنها تهمس بصلاة.

إن الدم الذي يعرف الانتظار
يعرف أيضاً كيف يكون حجراً.

توقّفت عن فقء الفول. نظرت آما إلى حضنها. انتظرنا ثم قرأت ثانية.

إن الدم الذي يعرف الانتظار
يعرف أيضاً كيف يكون حجراً
أن تكون في العالم هو الألم
هذا ما تعلمته.

أغلقتْ الكتاب ووضعته قرب الوعاء.

سألتني: لماذا كل هذا الألم؟ كل شيء مؤلم. لماذا لا يتوقف البشر عـــن تمزيق بعضهم، إرباً إرباً؟ قولي لي، يجب أن أعرف. أنولد لنتعذب فقط؟ هذا ما تعلمته، ولكن علي أن أعرف لماذا.

أضـــعُ يدي في وعاء الغسيل المليء بالحبوب، وأدعها تجري بين أصـــابعي. قلت لها: في إحدى أمسيات هذا الخريف، سندع الحبوب الجافة تغلي برفق، مدة سبع ساعات متتالية من دون ملح، حتى تنضج. عليـــنا أن نجـــد بعـــض اللـــيمون الأخضر، فهو أفضل من الأصفر، وستسلقين بعض البيض، على الأقل مدة ست ساعات في الماء، مع قشر البـــصل، ولن تنسي إضافة نقطة من زيت الزيتون، حتى لا يتبخر الماء عند الغليان. هل ستفعلين كلّ هذا؟

رفعـــتْ عينيها ومالت نحوي وحضنتني. فانقلب الوعاء وتناثرت حبات الفول على الإسمنت.

عـــندما انتبهنا لما حدث ضحكنا. كنّا نضحك على نكتة قديمة، نكتة أقدم من أي قصر، نكتة حبوب اسمها كلية الديك. ثم ركعنا على أيدينا وركبنا، وبدأنا بجمع الحبّات. أظن أننا لم نفقد إلا القليل منها.

أن نكـــون في هذا العالم هو الألم، صدق الشعر. وفي هذه الليلة تريد يداي مواساتك.

لا يمكن احتواء الفقراء كمجموعة. فهم ليسوا فقط الأكثرية على هذا الكوكب، بل إنهم أيضاً في كلّ مكان. حتى إننا بطريقة أو بأخرى قد نجد أن أصغر الأحداث تتعلّق بهم. ولهذا فإن مهمة الأغنياء هي بناء الجدران؛ جدران من الإسمنت، من التجسس الإلكتروني، من منصّات الصواريخ، من حقول الألغام، من الحدود المسلحة، من الإعلام المشوه، وأخيراً جدار من الأموال ليفصل المضاربات المالية عن الإنتاج. 3% فقط من المضاربات المالية والمبادلات النقدية هي التي تتعلق بالإنتاج. أحبك.

معـــرض *صـــناعة الخوف*! في الأسبوع الماضي افتتح في باريس معـــرض *صالون لو بورجيه* العالمي لتسويق الأسلحة. أحد العروض، التي لاقت رواجاً، كان عبارة عن صندوق أبيض اسمه *كوجيتو* 1002 ومـــن صـــنع شركة أنظمة الكشف عن المشتبه بهم. يجلس المسافر داخل الصندوق، ثم يتمّ استجوابه – أو استجوابها – بعد ذلك يُجبر علـــى وضع يده على سطح يقوم بفحص الحالات النفسية وقراءتها. ردّة فعل الجسم تجاه الأسئلة كما هي مسجلة بواسطة جهاز كوجيتو 1002، تـــبيّن إذا كـــان الشخص مشبوهاً أم لا. يستعمل الجهاز في المطارات الأمريكية. وهو جاهز للتصدير. إذا كان بإمكاننا الحصول علـــى *كوجيتو* 1002 هنا فسنتمكن من اللعب مع حرّاسنا. سوف يثيرهم بالتأكيد!

سأخبرك لماذا سأقوم الآن بكيّ أحد قمصانك البيض ذات الأزرار الداكنة، التي توجد على كل كم من أكمامها أربعة أزرار. هل ترى ما أعني؟

يــوم الجمعـــة الماضي، كان الحر شديداً إذ إن الحرارة تفوق 40 درجة مئوية، كنا نشرب الماء كل نصف ساعة، وما إن حلّ المساء حتى أصبحت السماء معدنية اللون. كنا بانتظار العاصفة. أخذتنا على حين غـــرة. ربما لا يضعف انتظار الشيء عنصر المفاجأة حين يأتي. كانت عاصفة حوّلت كل شيء في الدنيا إلى مطر.

كـــنت لا أزال في الـــصيدلية، كان الصوت على السطح مدوياً. قلتَ لي ذات مرة ونحن نقطع جسر عمر، إن صوت المطر الكثيف يشبه صوت النار.

ذهبت إلى الباب لأنظر إلى الأرض المهجورة. المطر الأصفر يقفز عن الأرض، والمطر الرمادي يتدفق من السماء. كل شيء مطر.

كانت تعتريني رغبة ملحة ولا تقاوم للخروج، والاندماج في هذه الأجـــواء الـــتي لا يمكن لأحد احتواؤها. كل يوم في حياتنا نجد أشياء عديدة لا يمكن تحديدها. كنت أفكر فيك. ولهذا استجبت لنداء رغبتي. اندفعت نحو الطوفان وأغلقت الباب ورائي.

لم يكن ذلك كمن يستحمّ، مي سوبليته، كان شيئاً عارماً، آنيا. أخـــذتني المياه، أخذتني كلي، وأخذت روحي معها في آن واحد. ربما صـــرخت، ولكـــنني بقيت هناك، لم تستثنِ المياه أي جزء مني وكنت سعيدة، مشرّعة، من دون حدود كما كان الوضع في طائرة الكاب 10.

صرخ أحدهم باسمي من بعيد. لم يكن بإمكاني سوى رؤية ملامح رجل يحمل كيساً فوق رأسه وهو يمشي نحوي عبر الأرض المهجورة.

عند اقترابه عرفته. ألكسيس. ألكسيس يقوم بإحدى زياراته المفاجئة. كان مبللا مثلي، ولكنه كان أقل فرحاً مني. مما جعلني أسحبه إلى الداخل.

وقفنا هناك بعيداً عن المطر المتدفّق، والماء يسيل، يسيل منا، ويشكل بركاً صغيرة على الأرضية المبلطة. كنا مندهشين، وكنا على وشك الضحك، ولكننا لم نضحك، لأنه في تلك اللحظة طرأت لنا فكرة... فكرة متبادلة.

لم نتفوه بكلمة، وبدأنا بالصّئيء كالفيلة التي تبخّ الماء من خراطيمها من أجل غسل أحدها الآخر. استمررنا على تلك الحال؛ نضخم الأصوات أكثر وبجنون أكبر. كنا كاثنين من الفيلة، نستخدم الذراع اليسرى كالخرطوم. وبينما كنا نقوم بذلك، كان كلانا يدرك، ونحن نتذكر أيام سجننا، أن ما نفعله، عدا عن كونه لعبة هزلية، كان أيضاً انغماساً في أحلام الحرية! نعم جنون، والجنون كان الأهم في كل هذا.

حوّلنا أكتافنا كأذني فيل وذلك لنجعلك تضحك، مي جولوندرينو، وليضحك أيضا مورات ودوريتو وعلي وسيلفيو. لا يمكنكم أن تشاهدونا ولا يمكننا مشاهدتكم. لأنهم سيكونون قد اقتادوكم إلى زنازينكم وأوصدوا الأبواب.

صاح ألكسيس: اسمعي ضحكاتهم!

لقد سمعتها.

توقّف المطر، فعدنا إلى الشقة حيث قمنا بتجفيف أنفسنا، أعرت ألكسيس هذا القميص من قمصانك وبنطالا وصندلا. كانت هناك

فرصـــة للذهاب إلى أمسية للعب الورق، لعبة الكانستا، فذهبنا. كانت أمـــسية لا بـــأس بها، حصل ألكسيس على 3 بطاقات سوداء وبطاقة حمـــراء. أما أنا فقلت، أكابا، وطلبت الإذن للتوقف عن اللعب. جفت ثيابه في اليوم التالي، فذهب.

هـــا قد أنهيت كيّ قميصك. كويته ببطء. كم من السنوات قد مـــضت و لم أقم بكيّ قميص لك؟ أعرف أننا نعد الزمن بالأيام وليس بالـــسنوات. كويـــته ببطء، وعقدّت الأزرار حتى القبة. لون الأزرار رمادي داكن، يميل إلى الأرجواني. في الصباح ومن على وسادتي أحب أن أراقـــبك واقفـــاً هـــناك، عند أسفل سريرنا. تغمض عينيك قليلاً للتركيـــز، فقـــد كـــان عليك فكّ ثلاثة أزرار حتى تتمكن من ارتداء القميص من فوق رأسك. ألفان ومئة وستة عشر يوماً.

لك دوماً،

عايدة

يروي جام يوجيل هذه القصة:

ياكـــوف، ابـــن السنوات السبع، يسأل صديقه: كيف يتمكن البـــشر من رؤية كل شيء، بأعينهم الصغيرة هذه؟ كيف يمكنهم أن يـــشاهدوا مدينة بأكملها وضاحية واسعة. كيف يمكن لكل هذا أن يجد حيزاً في عين صغيرة واحدة؟

حـــسناً، أقـــول لياكوف، تخيّل جميع المساجين في هذا السجن، الآلاف منهم. تخيّل عيونهم وقد اتّسعت وتضخمت من فرط شوقها إلى العالم خارج السجن. كيف يمكن يا ياكوف أن يتمكن السجّانون من حشر كل تلك العيون في مكان صغير كهذا؟

مي سوبليته،

في سنوات طفولتي وفي أواخر كلّ فصل خريف، كانت عمّتي تانيا تصنع مربّى من الياقطين كبير الحجم، وكان له مذاق مثل العسل مع الجزر الأبيض. كان هذا النوع من اليقطين ذا قشرة بلون البشرة، وموشّماً بخطوط وخصل بعضها أحمر وبعضها أخضر. لو عثرت على الوصفة سأصنع لك بعضاً منه، وأرسله إليك.

سأرسل إليك الآن جملة كما كتبها ابن عربي في القرن السابع. هو من كتب مشيراً إلى أن إدراك الكون من خلال المرأة هو الأبلغ كمالا! لا بدّ من أنكم جميعاً في سجن سوز ستوافقون على رأيه. أليس كذلك؟

وجدت اقتباساً عن هذه الجملة في مقالة عن أرسطو، نشرت في مجلة طبية قديمة استعملت أوراقها لتغليف صندوق من الحقن الطبية، وصلتني بالبريد من تايوان! تقول الجملة: إن الكائنات النورانية هي الطاقة الكامنة في قدرات جسد الإنسان.

أريد أن أهمس إليك، مي سوبليته، بالأسئلة والأجوبة التي تجتاحني، وأنا جالسة هنا، وحيدة، عدا عن كوينغ التي تتكوّر كل ليلة على الكرسي الذي استحوذت عليه. يمكنني القول إنني أجلس الآن على مقعدك المفضّل، لأنك كنت تحب الجلوس مقابل النافذة في أثناء تناول الطعام. آنذاك لم يكن لدينا الوقت الكافي لتكوين بعض العادات الحقيقية؛ سوى عادة النوم في أحضان بعضنا. لذا كان لجسدينا ولنومنا عادات خاصة. هنالك شيء ما يثيرني، نوع من الدهشة، عند إدراكي

أنه بعد أربعة عشر قرناً من كتابة تلك الجملة، يمكننا اكتشاف صدقها وحقيقتها.

أحـــدّق إلى هـــذه الصفحة حيث أخطّ كلماتي، فأسمع صوتك. تخـــتلف الأصوات عن بعضها مثل ما تختلف الوجوه. ولكن اختلافات الـــصوت أكثر صعوبة لكي يدقّق فيها. كيف يمكنني أن أصف صوتك لأحـــدهم ليتعرّف إليه من دون ارتكاب أي خطأ؟ في صوتك انتظار؛ مـــثل انتظار قطار ليتباطأ قليلاً حتى نتمكّن من القفز إلى الخارج. حتّى وأنـــت تقـــول: لا بـــأس، دعينا نذهب، أعطيني يدك، لا تنظري إلى الخلـــف! حتّى عند قولك مثل هذه الكلمات، هناك صفة الانتظار في صـــوتك، أو عندما حضنتني على سفح التل في سفيس قائلاً: ابقِي هنا إلى الأبد!

توصّـــل علماء البيولوجيا العصبية إلى معرفة حديثة، وهي أن كل جـــسم حيّ يتكوّن - إضافة إلى مكوّناته الفيزيائية كافة - من "شبكة خلايـــا ترسل رسائل" لا حدّ لها، وأن تلك الرسائل تدير أنشطة خلايا الجـــسم ووظائفهـــا وتـــوجهها، مـــن أجل المحافظة - تبعا للظروف والمـــتغيرات - علـــى أقصى درجة ممكنة من حسن الأداء والاستقرار. وهذا ما يسمّونه الاستتباب أو التوازن الداخلي.

هناك شيء آخر حول صوتك. عندما تتحدّث تصبح شفتاك مثل ستارة مرتدّة إلى الخلف، بدءا من لسانك وأسنانك، الستارة هي أيضا جرح؛ أريد في كلّ مرّة أن أغطّيه بفمي.

رســـائل الخلايا يتمّ إيصالها عبر روابط تسافر لمسافات طويلة عبر مجـــرى الدم، ومن خلال مسارات أخرى. كلّ واحد من هذه الروابط عـــبارة عن جزيء صغير مكوّن من الأحماض الأمينية. إن الهرمونات، والأنـــــزيمات الهـــضمية، والستيرويدات، والناقلات العصبية، جميعها

أنــواع مــن الروابط. ما يجعل هذه السلسة من العمليات بالغة التعقيد وحمــيمة في آن واحد، لأن كل نوع من الروابط ينبغي أن يتعرّف إلى متلقٍّ أو مستقبل من نوع خاص.

المــستقبلات هي أيضا عبارة عن جزيئات من الأحماض الأمينيّة موجــودة علــى سطح كلّ خليّة في الجسم، وقد يكون عددها مئات الآلاف على سطح كلّ خليّة. يشبه الأمر كما لو أنّ كلّ خليّة عصبيّة لــديها أكثــر من مليون أذن بارزة تترقّب استلام رسالة، من فم أحد أنــواع الروابط الخاصة بها. تلك الرسالة ينبغي إيصالها إلى نواة الخلية، بحيث تقوم الخلية بتغيير أنشطتها تبعاً لمضمون الرسالة التي استلمتها للتو من باقي أعضاء الجسم وما يحيط به.

عــندما أكتب كلمة خليّة، أفكّر في تلك الخليّة، رقم 73 حيث أنــت محاصر! لا تتوقّف الكلمات عن ربط أشياء غير اعتيادية بغيرها، لــذلك فهــي مثل أمهاتنا. هن يحاولن باستمرار جمع الأشياء معاً. هنّ عكس السجون! ذلك لا يمنع أن بعض الأطفال يبقون سجناء لأمّهاتهم مدى الحياة.

صــوتك فــيه همس يتجاوز المتوسّط. إنه صافر، صوتك الذي أفتقده. الصوت الذي أفتقده أكثر مما يمكنني التعبير عنه.

باب الغرفة المؤدّي إلى المستودع مفتوح، أرى في الجهة الشمالية حنفــية فوق الحوض الوضيع، حيث وضعت أصائص الزهور لسقيها. هــذا المساء، بعد عودتي إلى المنــزل، سقيت أحواض الياسمين الأبيض والأصــفر. أذكــر أنك غسلت قدميك هناك. لم تغسلهما في الحوض قرب الدوش.

كــنت تخلع حذاءك، ثم تغسل إحدى قدميك وتحدّثني عمّا جرى في ذلك الصباح، ثمّ تغسل قدمك الأخرى وتحدّثني عمّا جرى في فترة

ما بعد الظهر. كنت أستمع وأتخيّل أن كاحلك وعظام قدميك هي التي تقـــول ليديك مّا ينبغي قوله لصوتك حتى يقوله بدوره لي. لذا أريد أن أقبّل كل عظمة من الاثنتين والخمسين عظمة في قدميك.

تتـــراوح الرسائل التي تصل المستقبلات ما بين أبسط التعليمات مـــثل إلى الأمـــام! إلى الخلف! افتح! أغلق! إلى تعليمات ورموز بالغة التعقـــيد ومتعلّقة بسولوكيّات ومشاعر مختلفة، مثل التعاطف، والتعاون المتبادل، والخداع، والثأر، والتضحية، والحذر، والعشوائية.

كيف مثلاً عندما أقول في فراغ الليل *أحبك* فأستلم شيئاً هائلاً ؟ الـــصمت كامـــل كما كان. لم يكن ردّك ما استلمته، فلم يكن هناك ســـوى إعلاني عن حبك، ولكنّني أشعر بالرضى والامتلاء. ممتلئة بماذا؟ كيف يتحوّل اعتراف ما، إلى هديّة بالنسبة إلى من تفوّه به؟ لو أدركنا مغزى ذلك، فلن يكون هناك أي خوف. يا نور، كم أحبّك.

الروابط ذاتها ومستقبلاتها الخاصة يتمّ إنتاجها في الجسم والدماغ، وهـــي تعمل مثل شبكة لكل جزء منها السلطة نفسها. بالنسبة إليها، الجسد والدماغ متساويان. إنها قصّة طويلة.

مي سوبليته، بعض الروابط الموجودة في جسد الإنسان، موجودة أيـــضاً (الكتابة هنا غير مقروءة ومتفشّية) لدى بعض أوائل المخلوقات على سطح الأرض.

هـــناك طريقتان يمكن للروابط، من خلالهما، توصيل رسائلها إلى المـــستقبلات الخاصّة بها. الطريقة الأكثر شيوعاً هي عبر تشابك مباشر يحـــدث علـــى سطح الخلية، تماما مثلما يحصل معك عندما تنقر أنت وأصدقاءك على جدار يفصل بينكم في السجن. تلك الرسائل عبارة عن أنـــــزيمات تقوم بتحويل الأدينوسين ثلاثي الفوسفات إلى أدينوسين أحادي الفوسفات، الذي ينقل بدوره الرسالة إلى موقع أبعد.

الروابط الأسترويدية تعمل بأسلوب آخر، فمستقبلاتها ليست على جدار الخلايا بل في داخل نواة الخليّة. لذا فتعليماتها تعمل مثل رسالة مكتوبة ومربوطة على حبل متدلٍّ من طابق أعلى ليصل إلى نافذة السجن. تقوم المستقبلات بتوصيل رسائلها إلى الحمض الخلوي الصبغي داخل نواة الخلية، والذي يقوم بدوره بإرسالها كمعلومة من خلال الحمض السنووي الريبي. فمثلاً الهرمونات الجنسية، هي روابط أسترويدية. وتكوّن ثدييّ يعود فضله إلى تلك الهرمونات وإلى الرسائل التي تحملها موجّهات القندتروفين والأستروجين والبرجسترون والبرولاكتين.

مي سوبليته، لديك طريقتك الخاصة في القراءة. تجلس خلف هذه الطاولة وتقرأ الجريدة اليومية وهي نصف مطويّة، أو تقرأها وأنت مستلقٍ على ظهرك فوق السرير، وقدماك تبرزان خارج إطار السرير، وحين تود قراءة كتاب ما فأنت تحمله بيديك ليكون فوق وجهك. ربّما هو كتاب حول النباتات الجبلية. طريقة قراءتك، وطريقة أدائك للقراءة، هما شيئان خاصّان بك. قد ينجذب بعضنا إلى دوّامة قراءة المطبوعات، وبعضنا قد يقلع عن الرحلات الطويلة، أما أنت فتلملم كلّ ما يصلك وتربطه فوراً بما هو موجود حولك. وأنت تقرأ، لا تبدو غائباً بل أكثر حضوراً. ألقي برأسي على كتفك. القراءة بالنسبة إليك نوع من التدقيق، وهذا واضح من الطريقة التي تحرّك فيها ذقنك. أدير رأسي المسترخي على كتفك وألمس بلساني أسفل ذقنك ثم أرفع رأسي قليلاً وأضع شفتي فوق كلّ من الجهتين اللتين لمستهما شفتاي.

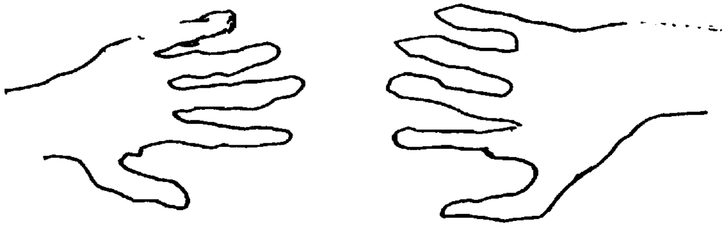
الرسائل التي تصل إلى المستقبلات، والتي تتجاوب معها الخلايا يمكن أن تتباطأ، أو تتسارع، أو تعود أدراجها، أو تُحدث اختلافا في أداء وظائف الدماغ، والغدد، وجهاز المناعة، والطحال، والجهاز

الهضمي، وكذلك يمكن لهذه الرسائل أن تكون محفّزة لما نشعر به أو ما نرغب فيه، كالشعور بالخوف، والرغبة في المجازفة، أو الاختباء.

أجـــسادنا مكـــوّنة من ترليونات الخلايا. والرسائل الواصلة إليها تـــشكّل شبكة من الاتّصالات المتبادلة والتبليغ العكسي والتنسيق. ليس هناك أوامر عليها، بل فقط مدارات مستمدّة من رسائل الجسد، بعضها موجـــود منذ بداية الحياة وهي تنسج - هذه هي الكلمة الوحيدة التي وجـــدتها - عبر تنوّعها نظاما ذكيا يمكن مقارنته بنظام الدماغ. يبدو الأمـــر كما لو أن الجسد والعقل من المادة الأصلية نفسها. والكائنات النورانـــية هـــي القـــوى الكامنة في قدرات جسد الإنسان. وفي تلك الصفحة من المجلة ذاتها التي وصلتني من تايوان، أطلق أرسطو عليها اسم *العقول*.

كـــلّ خليّة كائن بحدّ ذاتها. لها تاريخ ميلاد، وفترة حياة، وعلى الأغلـــب وقـــت للوفاة. لكلّ خليّة نحو مليون مستقبل ينتظر كلّ منها وصول رسائل عبر الروابط. الروابط هي أول الكائنات النورانية.

لماذا أقول لك كلّ ذلك؟ لماذا يبدو الأمر مهما؟ أعتقد أن السبب يعود إلى المكان حيث أنت موجود، وحيث أنا الآن.



إن اكتـــشاف البيولوجـــيا العـــصبية للكائنات النورانية المتعلقة بالـــروابط أحدث تغييراً على ما يمكننا تخمينه حول الدماغ، وكذلك علـــى ما هو شائع من معرفة حول علاقة الدماغ بالطبيعة المحيطة بنا.

وجهة النظر القائلة إن الجسد آلة يديرها عقل غير مادي وغير ملموس، وصلت إلى نهايتها الآن. تلك النظرية دامت لأربعة قرون فقط.

العقل مثبّت في الجسد، وذلك عبر وساطة الدماغ كعضو. يتكوّن العقـــل، ويأخـــذ مجرى حياته من خلال الخلايا العصبية التي تشبه كلّ الأنـــسجة الحـــيّة الأخرى. العقل والجسد، أحدهما غير مادي والآخر مـــادي محبوكان معاً في نسيج واحد، هما ليسا شيئين، هما شيء واحد. مي سوبليته.

وأنـــت في ســـجنك، لا يمكنك ذرع المسافات؛ سوى المسافات الـــصغيرة المكـــرّرة. ولكنك تفكّر وترحل أفكارك عبر الكون. يمكنني الـــسفر حيثما أريد، ذرع المسافات جزء من حياتي. تفكيرك وأسفاري همـــا الشيء ذاته تقريباً. الأفكار وامتدادها أجزاء من المادة نفسها. إنها مثل نسيج واحد.

أنـــت وأنـــا نـــبحث غالباً وعبر عقولنا، عن منفد خارج أيّامنا الداكـــنة، نحـــاول العثور على منفد، ليكون موجوداً في كل دقيقة إلى الأبد!

لـــذا أريد أن أقول لك إن الأحلام في السجون غالباً ما تتضمن وجـــوداً لكائـــنات نورانية. وهي الأقطاب المعاكسة للسجّانين، رغم وجـــود الطّيّبين أو السّيّئين من كلا المعسكرين. لكي نتمكن من فهم تلـــك الكائنات بعمق لا بدّ من فهم السجانين. خارج السجن ينسى الناس وجود كليهما.

العقل هو نتاج قراءة مستمرة لأحداث تجري في الجسد، ومن بين هـــذه الأحداث هناك أيضاً الإدراكات المختلفة عبر الأعضاء الحسيّة: نرى، نسمع، نلمس، نشم، ونذوق. ألعق ملعقة من العسل، وأرتشف الـــشاي ســـاخنا، الجو بارد هذه الليلة. وأنت في سجنك، ربما دفنت

رأسك تحت الأغطية. هطلت الثلوج اليوم لأول مرّة والهواء بارد، غطّت الثلوج كلّ غصين، كلّ غصن، كلّ فروع أشجار الفاكهة الموجودة على التلّة المقابلة. أصبحت تفاصيل كلّ شجرة وكأنّها مرسومة بالأبيض. أرسل إليك هذا المساء، تلك الزخارف البيضاء، كما لو أنّها نسيج نوراني. ما يحيط بنا هو جزء من ذلك النسيج أيضا. اسحبه فوق رأسك لكي تبقى متدفئاً بالكلمات التي تأتي إليّ كما آتي أنا إليك.

عندما نقرأ، فالأحداث الناتجة عن الإدراكات الحسيّة في الجسد، تتحوّل إلى صور في العقل. من دون العقل ليس هناك صور في أي مكان، يا حبيبي.

إن الطبيعة بأسرها مصفاة حذرة تروي قصة الذكاء الذي رشح عنها وعبر من خلالها. وأجسامنا هي جزء من المصفاة ذاتها، ومن أجسامنا تنبثق أذهاننا التي نقرأ بها هذه الرواية. أخلع ملابسي الآن لأقول لك هذا.

عايدة

ليلة سعيدة آيرين، سأراكِ في أحلامي...

مي غوابو،

أكتب إليك بينما أنت في زنـــزانتك تسمع كلماتي. أجلس على ســـريري، ودفتر الرسائل على ركبتي... إذا أغمضتُ عينيّ، يمكنني أن أرى أذنيك. الأذن اليسرى أكثر بروزاً من اليمنى. إحدى أعز صديقاتي في المدرســـة كانت تدّعي أن الآذان البشرية مثل القواميس، فإذا كنت تحـــسن اســـتخدامها ســـيكون بإمكانك أن تجد فيها المفردات: كلمة الصفاء، على سبيل المثال. الصفاء.

يـــرنّ جرس الهاتف. صوت ياسمينة يأتي حاداً ومتقطعاً – تصدر بعـــض العـــصافير زقـــزقة حادة، ومتقطعة مثل صوتها حين تشعر بأن شجرتها مهددة – لتخبرني بأن طائرة من نوع أباتشي كانت تحوم فوق مصنع التبغ القديم في منطقة العابور، حيث اختبأ سبعة من رجالنا، وأن نـــساء الأحـــياء المجاورة ومعهن أخريات أيضاً، يجهزن أنفسهن للقيام بدرع بشري حول المصنع، وعلى سطحه، لمنعهم من قصفه. فقلت لها إنني قادمة.

أضـــع الهاتف جانباً، وأقف ساكنة من دون حركة ولكنني كنت كمـــن يـــركض. هـــواء بارد يلفح جبيني، شيء مني – ولكن ليس جـــسدي، ربمـــا اسمـــي، عايدة – كان يركض، يدور، يعلو، يهوي، ويـــصبح شـــيئاً لا يمكن للعين أن تراه أو تصوّب نحوه. ربما كان هذا شعور الطائر عند إطلاق سراحه، إنه شيء من الصفاء.

لـــن أرســـل إليك هذه الرسالة، ولكنني أريد أن أقصّ عليك ما فعلـــناه في ذلـــك الـــيوم. ربما لن تقرأها سوى بعد موتنا. ولكن لا،

فالأمـــوات لا يقـــرأون. الأموات هم بقايا ما كُتب. الكثير مما يكتب يتحول إلى رماد. والأموات هناك، في ما تبقى من كلمات.

في الوقت الذي وصلت فيه إلى المكان، كانت هناك عشرون امرأة علـــى الـــسطح، يلوّحن بمناديل بيضاء. المصنع مثل سجنك مؤلف من ثلاثة طوابق. وقفت طوابير من النساء عند الطابق الأرضي، وظهورهن نحـــو الحائط. كنّ يحطن بالمبنى بأسره. لم تكن هناك أي مصفحات أو مـــدرّعات عسكرية أو سيارات من نوع *الهامفي* بعد. سلكت طريقاً عـــبر الأرض المهجورة لأصل. عرفت بعض النساء وأخريات لم أكن أعـــرفهن. تلامست أيادينا، وبصمت تبادلنا النظرات لنؤكد ما يجمعنا. لنؤكد شراكتنا، لنؤكد فرصتنا الوحيدة بأن نصبح جسداً واحداً طيلة مدة وقوفنا هنا، رافضات أن نتزحزح.

سمعنا طائرات الأباتشي تعود. كانت تحلّق ببطء، قريبة من الأرض لتراقبنا وترهبنا. كان محرّكها ذو الشفرات الأربع يدفع الهواء الذي في الأسفل ويجبره على حملها إلى الأعلى. سمعنا زمجرة الأباتشي التي نعرفها جـــيداً وزمجـــرتهم هم، حين يتّخذون القرار فنهرع بدورنا لنختبئ في الملاجـــئ. ولكن ليس اليوم. كان بإمكاننا أن نرى الصواريخ المسماة، *نـــار جهنم*، مدفونة تحت إبطي الطائرة. كان بإمكاننا أن نرى الطيار والمدفعي، كان بإمكاننا أن نرى البنادق الصغيرة مصوّبة نحونا.

أمام الجبل المدمر، وأمام المصنع المهجور الذي استعمل كمستشفى مـــؤقت عـــند انتشار وباء الديزنتاريا قبل أربع سنوات، كانت هناك إمكانـــية موت بعضنا. وأظن أن كل واحدة منا كانت خائفة، ولكن ليس من أجل ذاتها.

هرعت نساء أخريات عبر الطريق المتعرّج من أعالي جبل عابور. إنـــه شـــديد الانحدار في تلك النقطة. هل تذكر؟ لذا لم يكن بإمكانهن

رؤيـــة الحـــوّامة. كن يمسكن بأيادي بعضهن ويضحكن بتوتر، وكان شيء غريب أن نسمع أصوات ضحكاهن وزمجرة الأباتشي معاً. نظرت إلى زمـــيلاتي في الطابـــور. خاصة إلى جباههن. كنت متأكدة من أن بعـــضهن قد أحسسن بما أحسست به. كانت جباههن صافية. وعندما وصـــلت النـــساء المتلكئات من جبل عابور، أصلحن من شأن ثياهن وبكل دفء ورهبة تعانقنا.

كلما ازداد عددنا شكّلنا هدفاً أكبر. وكلما كبر الهدف ازدادت قوتنا. غريب هذا المنطق. كل واحدة منا كانت خائفة ولكن ليس من أجل ذاقا.

كانت الأباتشي تحوم فوق سطح المصنع وطوابقه الثلاثة، ثابتة في الـــسماء ولكن بحركة مستمرة. كنا نمسك بأيادي بعضنا بعضاً، ومن وقـــت إلى آخر كنا نعيد لفظ أسماء بعضنا البعض. كنت أمسك بيدي كوتـــو ومـــريم. كوتو في التاسعة عشرة من عمرها ولها أسنان ناصعة البـــياض. مـــريم أرملة في العقد الخامس من عمرها، قتل زوجها قبل عـــشرين عامـــاً. ومع أنني لا أنوي إرسال هذه الرسالة إليك، إلاّ أنني حريصة على تغيير أسمائهن.

في تلـــك اللحظة، سمعنا المصفحات تدنو من أسفل الطريق؛ أربع مـــنها. كانـــت كوتو تتحسس رسغي بأصابعها. سمعنا صوت مكبّر الصوت يعلن منع التجول ويأمر الجميع بالتفرق والرجوع إلى الداخل. كـــان الطـــريق من الناحية الأخرى للأرض مهجوراً ومكتظاً بالناس. تمكّـــنت مـــن رؤية بعض المصورين، غير بعيدين عنا، وكان هذا من صالحنا.

كانت المصفحات العملاقة تقترب نحونا بسرعة، وأبراجها تدور لتنتقي الهدف بدقة.

إن الخـــوف الـــذي يستفز ويولد من الأصوات، هو الخوف الذي يكـــون الـــتحكم به والسيطرة عليه أكثر صعوبة. كانت جنازيرهم تزمجر وهـــي تـــنهش وتدوس كل شيء في طريقها. تهدر محركاتهم وهي تدور وتـــتلوى وتنصهر في اندفاعها. يأمروننا عبر مكبّر الصوت بالتفرّق - ثلاثة أصوات، جميعها تعلو وتعلو، حتى توقفت المصفحات أمامنا في طابور يبعد عـــنا نحـــو اثني عشر متراً. بينما كانت أفواه مدافعهم من عيار 105 ملم تواجهـــنا مـــن مـــسافة أقرب، أقرب بكثير. لم نحاول أن نحتشد. وقفنا متباعدات، فقط أيادينا كانت تتلامس. ترجّل قائدهم من المصفحة الأولى وأعلمنا، وهو يتكلم لغتنا بركاكة، أنه سيجبرنا الآن على التفرّق.

ســـألتُ كوتـــو بـــصوت هامس: هل تعرفين ما هو ثمن طائرة الأباتـــشي؟ هـــزّت رأسها بالنفي. قلت من بين أسناني: ثمنها خمسون ملـــيون دولار. قبّلـــتني مريم على خدي. كنت أنتظر أن ينفتح الباب الخلفي لإحدى المصفّحات وخروج الجنود لمحاصرتنا. لم يكن ليستغرق هـــذا أكثـــر مـــن دقيقة، ولكنه لم يحصل، وبدلا من ذلك استدارت المصفحات، محافظة على مسافة 23 متراً، تفصل الواحدة عن الأخرى، وبدأت بتشكيل دائرة لتحيط بدائرتنا...

لم أفكّر في هذا الأمر آنذاك، مي غوابو، ولكن الآن، وأنا أكتب إليك في هذا الليل، أفكّر في هيرودوتس. هيرودوتس من هليكرناسوس، الـــذي كـــان أول من كتب قصصاً عن الطغاة. الطغاة الذين صُمَّت آذانهـــم بسبب سماعهم أصوات أسلحتهم الفتاكة، ولم يعودوا قادرين على سماع صوت الحقّ.

لم يكـــن بإمكانـــنا قـــطّ مقاومة الجنود. كانوا سينقلوننا عمداً بالعـــربات. أخذتْ المصفحات تحاصرنا، متعمّدة الاقتراب منا. كانوا يضيقون حبل المشنقة حولنا.

أنـــت تعـــرف كيف تختبر القطّة مدى قفزها، وتحسب المسافة، وكـــيف تحـــطّ بأطرافها الأربعة المتقاربة على نقطة كانت قد قدّرت مكانها بدقة. هكذا كان يجب على كل واحدة منا أن تفعل: ليس قياس مسافة القفز، بل بالعكس تماماً، قياس قوة الإرادة التي نحتاج إليها لاتخاذ القـــرار المخـــيف بالـــبقاء في أماكننا، قرار ألاّ نفعل شيئاً بالرغم من الخوف؛ لا شيء. إذا لم تقدّر جيداً قوة الإرادة اللازمة، فهناك خطر أن تخرق الصف وتركض قبل أن تدرك ما تفعله. كان الخوف ثابتاً ولكنه يـــتأرجح. إذا غاليت في التقدير فسوف تضعف قبل النهاية، وستصبح عالـــة علـــى الآخرين، وسيترتب على ذلك أن يسندوك. من يد إلى أخرى، كانت أيادينا المتماسكة تساعد في نقل طاقة تقديرنا للموقف.

عـــندما أحاطت المصفحات بالمصنع في المرة السابقة، كانت على بعـــد ذراع مـــنا، ليس أكثر. ومن فتحات هيكلها المسيجة بالأسلاك الشائكة كان بإمكاننا أن نرى خوذاً، وعيوناً وأيادي تلبس القفازات.

أكثر ما أرعبنا هو مشاهدة السقوف المصفحة للمدرّعات عن هذا القـــرب! ومع مرور كل مدرّعة لم يكن بإمكاننا أن نتحاشى النظر إلى هـــذه الـــسقوف الصلبة، وهي الأشد صلابة من بين ما صنّعه الإنسان وغير قابلة للاختراق. لم نقدر أن نغض النظر إليها حتى وإن كنّا نغني، وقـــد بدأنا فعلياً بالغناء... فعلى يد هذه المدرعات بمساميرها المخفية، وملمـــسها الجـــاف الـــشبيه بجلد الحيوان، وصلابتها الشبيهة بصلابة الجرانيت الذي كان بلون الروث؛ ليس لوناً للمعدن ولكنه لون للعفن، نعم، على يد تلك المدرعات كنا ننتظر أن نسحق. وها نحن بمواجهتها وعلينا أن نقرّر، ثانية، ثانية، ألاّ نتحرك. ألاّ نتزحزح.

قالت كوتو: يقول أخي إنه بالإمكان سحق أي مدرّعة إذا عرفت كيف تجد المكان الصحيح والوقت المناسب.

كـيف كـان بإمكاننا - نحن النساء الثلاثمئة - أن نصمد كما صـمدنا؟ جنازير جرّافات الكاتربيلر أصبحت الآن بعيدة عن صنادلنا بضعة سنتمترات. لم نتزحزح. استمررنا في مسك الأيادي، ونحن نغني لبعـضنا بعـضاً، استمررنا بصوت نسائي بعمر الزمن. هذا ما حصل. وهـذا ما ساعدنا على القيام بما قمنا به. لم نهرم أو نشيخ بل - وبكل بساطة - كنّا نساءً قد بلغن من العمر ألف عام.

وصل إلى مسامعنا صوت انفجار من مدفع رشاش في الشارع. لم نـستطع أن نرى بدقة ما كان يحصل من موقعنا. ولكننا تبادلنا الإشـارة مـع أخواتنا على السطح، واللواتي تمكّن من مشاهدة ما يحـصل عن كثب. طائرة الأباتشي تتدلى من فوقهن وتنذر بالخطر. فهمنا من إشاراتهن أن دورية قد أطلقت النار على بعض الأشخاص الـذين كانـوا يركضون في الطريق. بعد قليل سمعنا عويل صفارة الإنذار.

كـان لقوة الشفط الصادرة عن المدرعة الثانية المطبقة علينا، أنها أثّـرت على ثيابنا وأثارتها من حولنا. لا تفعلن شيئاً. لم نتزحزح. كنّا مذعـورات. وبـصوت جدّاتـنا تابعنا الغناء. نحن هنا لنبقى. لم نكن مسلحات إلا بأرحامنا المنسية.

هكذا كان.

ثمّـة مدرعة واحدة - لم نصدق حينها عيوننا المغبشة - مدرعة واحدة أوقفت دورانها وذهبت عبر الأرض المهجورة. تبعتها أخرى، ثم أخرى ثم أخرى، هلّلت النساء من فوق السطح ونحن، صامتات الآن، بـدأنا - وأيادينا ما زالت متماسكة - بدأنا بالتحرك نحو اليسار، شيئاً فـشيئا وعلى مهل، كما يليق بأعمارنا، حتى نجحنا في إحكام الدائرة حول المصنع.

بعـــد نحو ساعة أصبح بإمكان الرجال السبعة أن ينسلوا بهدوء. ونحـــن، جـــداهن، تفرّقنا، عائدات بذاكرتنا إلى ما كنّا عليه حين كنّا صـــغيرات، وكـــيف أصبحنا الآن صغيرات. خلال عشر دقائق سمعت الخبر. انتقل من فم إلى فم: ماندا، مدرّسة الموسيقى قد قُتلت بالرصاص في الطريق. كانت تحاول الانضمام إلينا.

كانـــت ماندا تقول: ليست هنالك آلة مثل العود، ما إن يتوازن على حضنك، حتى يتحوّل إلى رجل! ماندا!

أنا لك يا حبيبـــي ما دمت أحيا.

رسالة غير مرسلة

نور،

كلّ موت جديد يحضّرنا إلى شيء ما - طبعاً يحضّرنا إلى موتنا - مـــوتي أنـــا، وليس موتك. فليس هناك أي شيء يمكن أن يحضّرني إلى مـــوتك. سأجلس على الأرض، رأسك في حضني، وقنابلهم العنقودية تتفجر حولنا وسأرفض موتك. كل موت جديد يحضّرنا أيضاً إلى نوع من الاحتفال الكرنفالي، إلى كرنفال يقام رغماً عن أنوفهم، كرنفال لا يمكـــنهم الـــتدخل فيه حتى ولو استخدموا طائرات البريداتور. أتذكّر كيف قاموا بقنص ماندا.

كـــان هناك عدة مئات في جنازتها. بعد ذلك غنّينا القليل، القليل فقط من أغانيها. وكان ذلك كتدريب للكرنفال الذي يرعبهم، يرعبهم كثيراً.

ليست هناك أي أغنية في الوجود لم تخاطب في جزء منها الموتى. يأخذ الموتى هذه الأغاني ويضعونها في جيوب صمتهم، جيوب صمتهم الأمامـــية، مع مفتاح البيت، وبطاقة الهوية، والقليل من النقود وسكّين. عندي سكّين جديدة، مي كاديما. أعطتني إياها سوكو.



في الحقيقة، إنها ليست جديدة، بل وجدتها سوكو على الأرض ولم تحتفظ بها بسبب معتقداتها الخرافية. أعطتني إياها قائلة: أقسم بالله إنك الوحيدة من بين اللواتي أعرفهن والتي لن تقوم بذبح نفسها أبداً، وأنا متأكدة من ذلك. أستعملها الآن لتقطيع النعناع والأناناس. لها مقبض من العظم وغمد. وإذا كان ذلك ضرورياً يمكنني الطعن بها.

يضعُ الموتى أغانينا في جيوبهم الصامتة. عندها، يتغير الصمت، ويصبح صمتاً يشي بالقرب لا بالبعد، صمتاً مشتركاً. كالصمت بين آميترا وفيكتور ويحيى وإميل وزكريا وسوزان ونانسي وفالنتينا وسيزار، كالصمت الذي يضمّنا أنت وأنا؛ نحن اللَّذَين ما زلنا حيّين. كالصمت بيني وبين ماندا في هذا المساء.

في الساحة الرئيسة، وعلى سطح مبنى البلدية كانت هناك ساعة كبرى تعلن عن الوقت. وعند وصول قطار من القرية - مرة في الصباح الباكر من كل يوم - كان يتواجد في الساحة رجل أنيق، منهمك بمطابقة توقيت الساعة الكبرى مع توقيت ساعة جيبه. سأله راعٍ كان قد وصل على متن القطار للتو، باحثاً عن عمل في المدينة، عن ما يفعله وهو واقف هكذا لمدة طويلة؟ أنتظر. كان ذلك جواب الرجل، فهذا الأمر من بين مهماتي، أن أتفحّص ساعة البلدية وأراقبها، فحين تتوقف الساعة الكبيرة أقابل توقيتها بالتوقيت لدي. ويشير إلى ساعته، فعندي التوقيت الصحيح. وهكذا يتمكن موظف البلدية من إعادة ضبط الوقت الصحيح في الساعة الكبيرة. سأل الراعي: هل تتوقف كثيراً؟ بضع مرات في الأسبوع، وعند حدوث ذلك، يستشيرونني وأعلمهم بالتوقيت الصحيح ومن ثم يدفعون لي. أتقاضى قرابة الدولار. مال يسهل الحصول عليه. الحقيقة أنه لدي الكثير من الأشغال. أكثر مما

يلزم. مهلاً، وجهك يعجبني، إذا رغبت فسأقوم بتسليمك هذه المهمّة. يمكنك أن تأخذ ساعتي - فهي جزء من المهمّة - بنصف دولار فقط.

أسمع صوت ماندا العميق وهي تروي هذه القصة. في حياة أخرى، كان اسم ماندا، سفيغي. كان بإمكانها أن تروي القصص بأصوات متعددة حسبما تقتضي القصة. كما يرويها رجل أو كما ترويها امرأة أو كما يرويها طفل. يمكنني أن أرى الساحة المبلطة بالأحجار الكبيرة، يمكنني أن أرى وجه الراعي، الذي سوف يقول للرجل الأنيق: حسناً، سأدفع لك في أول يوم تتوقف فيه الساعة الكبيرة.

عندما قتلوا ماندا في ضاحية جبل عابور؛ قتلوها في كل قصّة من قصصها. سال دمها على الحجارة الكبيرة في الساحة، ذاك المكان الذي كان شاهداً على فصاحة الراعي أمام الرجل الأنيق.

عندما لا يكون هناك أحد في الصيدلية لطلب الاستشارة أو للسؤال عن الأدوية- أجد نفسي أتحدّث إلى صمتها.

عند عودتي إلى البيت هذا المساء، وجدت على حافّة نافذتي وعاءً فيه حلوى الجيلي، وقد غرست فيه شرائح من الموز والتوت البري.

غرفة آما صغيرة جداً. لذا، عندما تقوم بالطبخ فهي تضع طبّاخ الغاز خارج بابها على السطح. وهكذا، ومن خلال الباب المفتوح يمكنها أن تراقب النار من حيث تجلس على سريرها. يتّسع سطح الطباخ لطنجرتين. آما، تطبخ في أوقات غريبة. لا بدّ من أنها قامت بإعداد جيلي الفراولة هذا الصباح.

عندما أبتاع البقلاوة - ولا أقوم بهذا كثيراً، لأنني أتناول الكثير منها- أضع بعضاً منها على حافّة نافذتها وأغطيها بشال ليقيها من

الـدبابير. لا نتـبادل الشكر بالكلمات، فالهدايا الصغيرة، ما هي إلا فواصل من الاهتمام.

في إحـدى أمسيات الأسبوع الماضي، جاءني شاب إلى الصيدلية، وسـأل إن كنت قد رأيت خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، قطّة بلـون الزنجبيل. اسمها فوكس. قلت: لا، لم نشاهد أيّ قطّة. لم أستطع التعـرّف إلى الشاب. ربما كان في السابعة عشرة من العمر. كان من الـسهل أن أتخـيله مع بندقية. ولكن في ذلك المساء لم يكن مسلحاً. كانـت عيناه شديدتي السواد، وله سالفان سوداوان وشاربان رفيعان، وجـسمه مـرن. قال: في آخر مرّة رأيت فيها القطّة، كانت خائفة. وكانت تركض هنا، في الأرض المهجورة، نحو مصنع البوظة.

هززت رأسي.

إذا شـاهدتِها وتمكنت من الإمساك بها، فلا بأس. ولكن، إذا لم تـتمكني من الإمساك بها وشاهدتِها، فهل بإمكانك مهاتفتي. هذا رقم هاتفـي الـنقال. أعطاني قصاصة من الورق كُتب عليها الرقم مسبقاً. سألته، هل هي قطتك؟ نظر إليّ نظرة يراد بها القول، إنه كان علي أن أعرف من دون الحاجة إلى السؤال.

قـال: إنهـا قطـة جيما، وهي في التسعين من عمرها، وتعيش وحـيدة. أخشى عليها إذا لم تجد قطتها، فهي لم تتمكن من النوم ليلة البارحة. أسمتها فوكس بسبب لونها الذي يشبه لون الثعلب.

قلت، سأترقبها. التقت أعيننا، وأظن أننا نحن الاثنين كنّا نتساءل عن الشيء ذاته؛ عن كيفية العيش حتى سِّن التسعين!

قال: شكراً. شكراً جزيلاً.

فواصـل مـن الاهتمام! ترقيم الأيام بها هو الشيء الذي يتعلّمه السجناء ذَوو الأحكام الطويلة. أليس كذلك؟ ولكن بعد أيام من عدم

الكتابة إليك، وأسابيع من دون رسائل منك، فالفواصل ليست كافية. أحتاج إلى سطرين من أغنية. أغنية كانوا قد غنوها قبل تكوين الفواصل اللعينة أو اختراع ورق الكتابة.

شهوتي هي كحل رموشي
عندما أراك تلتمع عيناي!

لك دوماً،

عايدة

كـــنّا قد سمعنا عن لوحات الفنّان هاتشن لين الذي أمضى نحو سبع سنوات في سجون مينمار، والذي كان يرسم على القماش الأبيض لقمصان السجن المغسولة والمستغنى عنها بسبب عدم توفّر أي شيء آخر. كما كان ينحت التماثيل من قطع صابون السجن المسموح بها. أُفرج عنه من سجن ميونغمايا عام 2004. وتساءلنا إذا كان بإمكانه إرسال لوحة إلينا، وقد تحقّق ذلك بالفعل.

يُخرجها دوريتو وهي ما زالت مطوية من جيبه. نراقب. يفضّها. ينشرها أمامنا مثل رداء مصارع الثيران الذي يلقى على الكتفين، غير أنه هنا رقيق، مهلهل النسيج، قطني يميل إلى البياض ولم يكن حجمه يكفي ليغطي جذع رجل. على القماش القطني رسمت دائرة، وكانت الدائرة مركزة على قاعدة مرسومة أيضاً، مثل الكرة الأرضية في إحدى الصفوف المدرسية، أو مثل مرآة دائرية على طاولة الزينة.

رُسمت في الدائرة جزمة رجل؛ القدم اليمنى. وكانت الألوان قد وُضعت على القماش بواسطة حقنة ثم تمّ فركها بالأصابع. للحصول على اللون الأسود، استعمل دهان المنازل المصنوع من الفينيل. ربطات الجزمة محلولة ولسانها متدلّ. رسم داخل الجزمة مجموعة من الأغصان بدت مثل سويقات من أشجار الفاكهة أو من أشجار الزيتون، وعلى رأس كل غصن رسم وجوه ساعات بدلاً من الزهر.

كانت وجوه الساعات من عدة أحجام. بعضها ليس أكبر من ساعة اليد، وأخرى كبيرة مثل ساعات الإنذار القديمة ذات الجرس في أعلاها. كان من الصعب قراءة الوقت على أي منها، والظاهر أن كل دائرة كانت تعلن عن توقيت مختلف، ربما كان بعضها يشير إلى توقيت صباحي، وبعضها الآخر يشير إلى توقيت مسائي. ولكن، ما كان واضحاً هو أنّ كلاً منها كان ذا توقيت مختلف وأنها كانت متناقضة.

جميع هذه الأمور كانت إشارات أكّدت لكل منا أن هاتشن لين، كان سجيناً متمرساً. قررنا أن نأخذ لوحته إلى زنازيننا بالتناوب. نطويها. نضعها في جيوبنا. نفضّها. نخلع جزمنا ونفكّر في أيام أخرى. وفي اليوم التالي، نقدّم القماش القطني المرسوم فوقه، والمطوي إلى زميل آخر.

مي سوبليته،

لم تنخفض درجة الحرارة خلال الليل عن 41 درجة مئوية، وكان الجو في الصيدلية هذا الصباح، خانقاً. وحتى تسوء الأمور أكثر كان هناك انقطاع للتيار الكهربائي. وهكذا، لم نتمكن من تشغيل المروحة. في بعض الأحيان نشعر وكأنهم استولوا على الفصول أيضاً، خاصة خلال ساعات النهار (أما في الليل فهم أكثر خوفاً منا).

ذهبت لزيارة سوكو. كانت تلك أول زيارة لها منذ أن فقدت سوكو المسكينة زوجها. تفاجأت، لأنها لم تعد تتأفف من أي شيء. أليس غريبا أن يرشح عن الفقدان بلورات من الشجاعة؟

سوكو التي لم تتوقّف عن النواح وعن التوسل إلى الله أن يأخذها، أصبحت زاهدة، وقليلة الانفعال. هل هذا ناتج عن عدم وجود أي شيء آخر في حياتها لتفقده؟ لست متأكدة. شقيق زوجها الذي اختفى قبل خمس سنوات ظهر في لندن، حيث كان قد وجد عملاً كسمكري. لقد نال تدريبه كمحامٍ، ولكنه قرر الاختفاء عندما أغلق راديو AI. قالت سوكو إنه قابلك ذات يوم.

ومع أنها تعاني مشاكل في عدسة العين، إلا أنها لا تزال تزاول مهنة الخياطة. لا يوجد أي شيء من دون نقود، تردد، أي شيء. ولكنها اليوم تقول الشيء ذاته ولكن بنغمة أخرى، وكأن الملاحظة ذاتها قد أوضحت ماهية الحل.

تـــصرّ علينا أن نأكل من الكعكة التي أعدّها من فاكهة المشمش المجفف.

التـــيّار الكهربائـــي ما زال مقطوعاً، والشمعتان على طاولتها قد أوشـــكتا علـــى الانطفاء. تقول لي: انتظري، عندي غيرها. تنظر إلى داخل الدُرج، وتعود حاملة شمعتين جديدتين.

تُذيب أسفل الشمعة من لهب الفتيلة المتبقية في فجوة الشمعدان ثم تثبّتها على الفجوة ذاها بقوة. تسأل، هل هي عموديّة الآن؟ لا أستطيع أن أرى، أخـــبريني، هـــل هي عموديّة؟ تشرح لي أن أليكس هو الذي كـــان مسؤولاً عن تثبيت الشمع. تسأل ثانية، هل هي عموديّة؟ إذا لم تكن كذلك فقد تسيل وتقطر.

أقول لها: قليلاً نحو اليمين. نعم، هذا ممتاز.

ثبّتت الشمعة الثانية. هل أنت متأكدة من أنها عموديّة؟ أهز رأسي بـــنعم. إذا لم تكن كذلك فستقطر. أقول: ممتاز. تقول: كان لأليكس نظـــرة ثاقبة لكل ما هو قائم، وكان يأخذ ما يكفي من الوقت ليتأكد من أن الشمع مثبت بطريقة جيدة.

فجأة، أجد نفسي أصرخ باسمها: سوكو! وأبكي.

لم أقـــدر على أكل الحلوى ولم أقوَ على التفسير. كنت شديدة الإعياء. طلبت مني سوكو أن أستلقي على الأريكة، ففعلت.

ننسى الإعياء، مي سوبليته، إن الإعياء صبور مثل صبر أليكس مع الشمع. الإعياء ينتظر. ومثل الصدأ ينخر في صلب الإرادة وحتى أقواها تـــصميماً. يحيل الأمل المتوهج إلى غبار أحمر ويقلل من عزيمتنا. يسعى الإعـــياء للقضاء على تأجيلنا الأبدي للأشياء، ويختار في آخر المطاف أقـــصر الأجـــوبة. وما هو أهم، فإن الإعياء يؤثر الهدوء، غير آبهٍ بأنه هدوء الموت.

في مـــرحلة مـــا، وأنـــت تعتني بشخص تحبه، شخص يتألم، ستـــصلان معاً إلى حافة بحيرة، ستتبادلان النظر بفرح عظيم، فهناك الهدوء الكبير.

رسالة غير مرسلة

مي جولوندرينو،

لقد كتبتُ إليك في الماضي قبل فصلين من فصول الشتاء حسب مـــا أذكـــر، عن رجل مصاب بداء السّكّر كان قد جاء ذات ليلة إلى الصيدلية وكان بحاجة ملحّة إلى السّكّر. هل قلت لك هذا؟ كان شديد التوتر، ومن حسن الحظ أنني كنت هناك. قدّمت إليه ما يلزم، ثم غادر. كان يتكلم بلهجة معيّنة ولكنني لم أسأله عن أصله ولا من أين أتى، ولم يُعطني اسمه. ولأنني أتكلّم معك كثيراً في ذهني، أجدني مشوشة حول ما كتبته أو ما لم أكتبه في رسائلي إليك. في مدينة خالية من السجون؛ هل هـــناك أي شـــيء كهذا؟ من يمكنه أن يتصوّر أنه بالإمكان وضع هذا الكمّ من الأخبار والمعلومات في رسائل؟

أعـــيد قراءة رسائلك مرات عديدة، ولكن ليس في الليل. إذ إنّ إعـــادة قراءتها في ذلك الوقت من اليوم، قد تشكل خطراً على الليل. أقـــرأها في الـــصباح، بعد احتساء القهوة، وقبل أن أذهب إلى العمل. أخرج من البيت لأتمكن من مشاهدة السماء والأفق. وفي أوقات عديدة أصـــعد إلى الـــسطح، وفي أوقات أخرى أجتاز الشارع وأجلس فوق جـــذع الـــشجرة التي سقطت، هناك حيث يتواجد النمل. نعم إنها ما زالـــت هناك. آخذ رسالتك بمغلفها الذي اتسخ، وأقرأ. وفيما أقرأ تمرّ الأيام، الأيام التي ما بين، تمرّ هذه من أمامي مسرعة، مقعقعة كعربات قطار شحن. وماذا أعني *بالأيام التي ما بين*؟ الفترة بين هذه المرّة والمرّة الماضـــية التي قرأت فيها الرسالة ذاتها وبين اليوم الذي كتبتها فيه واليوم الذي أخذوك فيه، وبين اليوم الذي أخذها فيه أحد السجانين وأودعها

البريد، وبين اليوم الذي أجلس فيه على السطح وأقرأها. الفترة الزمنية مـــا بين هذا اليوم الذي علينا أن نتذكر فيه كل شيء، وبين ذلك اليوم الذي نستطيع فيه النسيان، لأن بحوزتنا كل ما نريده. هذه يا حبيبـــي هي *الأيام ما بين*، وأقرب قطار إلى هنا يبعد عنا نحو مئتي كيلومتر.

هـــذا الصباح كنت في مدينتك، في سوز، أشتري علبة من ورق لعـــب "الشدّة"، وفيما كنت أجتاز السوق، عند كشك البرتقال، جاء رجل من خلفي قائلاً:

أنا مدين لك بكلمة شكر.

شكر، لماذا؟

لقد أنقذت حياتي، قبل سنتين، في سوكرات.

كيف حصل هذا؟

بحقنة سكّر.

تعني سكّراً أم أمفيتامين؟

في ليلة متأخرة.

في تلـــك اللحظـــة تذكّـــرته، بكتفيه المنحنيتين، ولهجته الغريبة، وغـــضبه. غضبه الذي كان مؤشراً على مدى هبوط السكّر عنده. لقد كـــان ذلك الرجل الذي أظن أنني كنت قد حدثتك عنه، والذي جاء في تلك الليلة إلى الصيدلية.

قـــال: أسكن في الشارع المجاور، خلف متجر الحلاق، أرجو أن تكـــوني ضـــيفتي لأقـــدّم لـــك فنجان قهوة. لقد مضت عليَّ سنتان بالانتظار.

لا يوجد عندي الكثير من الوقت.

أعمـــل في تنظـــيف السوق وعليّ أن أبدأ عملي بعد ساعة، لذا ستكون قهوة سريعة.

إذا أردت.

سلكنا طريقاً ضيقاً بجانب متجر الحلاق.

هـــنا، أشار بيده وهو يحيي زبائن الحلاق الذين ينتظرون دورهم لقص شعرهم، ولحلق لحاهم. هنا، عند الحلاق، تظهر الحقائق وتستبين، أكثر مما تظهر وتتكشّف في أي مكان آخر.

هل تعمل في السوق منذ مدة طويلة؟

منذ خمس سنوات. منذ أن اتخذت القرار بأن ألبـــي النداء، وأتبع دعوتي.

وما هي دعوتك؟

وكجـــواب عـــن سؤالي، يفتح الباب الأمامي الذي يفضي إلى الخارج، ويومئ إليّ وهو يدعوني إلى الدخول.

غـــرفتي عاريـــة، ولكنني أتوسّل إليك أن تشعري بالراحة، كأن البيت بيتك. قهوة إيطالية أم تركية؟

التي يكون تحضيرها أسهل بالنسبة إليك.

بكل بساطة، هي مسألة طريقة طحنها.

يختفـــي خلـــف حاجز صغير يفضي إلى زاوية من الغرفة، حيث وصل طاحونة القهوة بالكهرباء. وامتلأت الغرفة برائحة القهوة الحادة والتي كانت كرائحة الراتينغ الكيميائية.

كانـــت الغـــرفة صغيرة. لا بدّ من أنها كانت متجراً صغيراً في ما مـــضى، ربمـــا لبائع كماليات الخياطة. كانت هناك فرشة ملفوفة على الأرض ومسنودة إلى الحائط، وطاولة كبيرة أمام الشباك، وكرسيان. لم يكـــن هناك أي شيء آخر. لا ستائر، ولا بسط، لا لوحات، لا إضاءة من السقف. كان هناك مصباح للقراءة على الطاولة.

لقهوتك رائحة زكيّة.

ستحكمين، يا ضيفتي المحترمة، عندما تتذوقينها.

هل بإمكاني سؤالك عن ما تسمّيه *دعوتك*؟

أجابني وهو واقف عند مدخل الحجرة الصغيرة: دعوتي كانت بأن أصبح شاعراً.

كانت؟

نعـــم، كانت مقرّرة، قبل أن أكتشفها بزمن طويل. ثلاثون سنة مرّت قبل أن أتبين معالمها. قبل ذلك كنت أبيع السجّاد. غني عن القول إنها ما زالت دعوتي. إذا أحببت يمكنك أن تلقي نظرة على طاولتي.

علـــى الطاولة، أمام النافذة توجد اثنتا عشرة صفحة من الورق. كانت متساوية الحجم، ومنظّمة بتأنٍ - من اليمين إلى اليسار - وكأنها بلاط لممرات حديقة، وكانت كلّ واحدة منها مغطاة بخط يدوي ذي أحـــرف صـــغيرة، مع شطبات وتصحيحات عديدة. بجانب الفقرات الكبيرة كانت هناك علامات استفهام، وفي بعض الأحيان كانت هناك علامـــات مخـــتلفة بجانب فقرات أخرى، تشير إلى أن تلك الفقرات لا بأس بها.

وكانـــت الحاشية الأساسية إلى جهة اليسار في كل صفحة، كما أن الأطوال المختلفة للأسطر، تدلّ جميعها إلى أن ما يكتبه كان شعراً. عـــدد آخر من الصفحات، مكسُوٌّ بالكتابة الصغيرة المكثفة ذاتها، كان مـــركوناً على حافة الشباك. لم أتمكّن من قراءة كلمة واحدة. كانت الكلمات مكتوبة بلغة تشبه التركية. سألته عن ذلك. أجاب، نعم ولا. أكـــتب بلغـــة جبال طوروس. إنها لغة أمي التي تمضي ساعات النهار وحيدة، وتريد أن تسمع الحكايات عند المساء.

نظر نحوي نظرة خاصّة، وكأنه يرغب في التأكد من أنني انتبهت إلى أن حقيقة الأشياء ليست بالضرورة كما تبدو عليه. لبعض المتسولين

النظـــرة ذاهّـــا عـــندما يقبلون الصدقة. نظرهم تقول: عليك أنت أن تشكريني، فأنا الذي اخترتك.

ذهـــبتُ لأرى ما كان يفعله في المطبخ الصغير. كانت القهوة في الإبـــريق قـــد غلت مرتين، وكان يضع الملعقة الأخيرة من الماء البارد. حيثما وأينما وجدت مساحة مسطحة - قرب الطباخ، قرب المغسلة، تحـــت المرآة - كانت هناك أوراق متفرقة، مغطاة بالخط الدقيق الصغير ذاته. راقبني وقد انتبهتُ إلى الأوراق.

أتـــنقّل حيـــنما أكـــتب، خاصّة في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس، إذا لم يصلني إلهام الشعر وأنا عند الطاولة الكبيرة، آتي بكرسي وأجلـــس عـــند الـــباب الأمامي، أو هنا لآكل بعض الخبز أو لأنظف أسناني. أتنقّل من وادٍ إلى آخر، من جبل آرارات إلى قمم غوكسول أو إلى ممرات سيليسي.

مرّة أخرى نظر إلي نظرة المتسول ثم ناولني فنجان قهوتي. أخذتُ رشـــفة. كانت القهوة من ألذّ ما شربته منذ فترة طويلة. جلست على أحد الكراسي بالقرب من الطاولة.

هل هي قصيدة واحدة طويلة؟

ربّمـــا، لا يكتب أي شاعر أكثر من قصيدة واحدة. قصيدة تمتد مـــسافة العمر كله، وقد يظن أنه يكتب قصائد قصيرة مختلفة. لكن في الحقيقة، إنها جميعاً أجزاءٌ من القصيدة الطويلة ذاها.

ما موضوع قصيدتك؟

إنهـــا تمجيد للحياة ولعطائها السخي. عندما أقوم بكنس السوق، أقـــوم بالإصـــغاء أيضاً. لا أتوقّف عن الإصغاء. وفي كثير من الأحيان تكون الكلمات التي أسمعها في غاية الدقّة. أتذكّرها. إنها مسألة أن تبقي أذنـــيك مفتوحـــتين وجاهزتين لتسمع. إن مرضى داء السّكّر - كما

تعـــرفين – معرّضون أكثر من غيرهم لخطر الإصابة بالصمم، وبالعمى أيضاً.

سألته: هل بإمكانك أن تترجم لي سطراً أو سطرين؟

هل استمتعت بالقهوة؟

إنها بالفعل ممتازة.

بالإمكان متابعة تذوّقها من بين عينيك، حتى بعد أربعين دقيقة من احتـــسائها – شـــرط أن يكون كل شيء هادئاً من حولك – قصفتنا البارحة إحدى طائراتهم من الأباتشي.

بضعة أسطر؟

أردّتُ أن أقدّم إليك القهوة وأن أطلعك على سري لأنكِ أنقذت حياتي.

بضعة أسطر؟

سأقرأ بعض الأسطر من دون ترجمتها. ستسمعين السرّ، وسيبقى السرّ سرّاً.

تبدّل صوته ولم نعد في الغرفة، بل أصبحنا جالسين تحت شجرة. تركت الكلمات تعبر من دون أن أطلب منها أي شيء. ثم قال: لدينا استعداد للاعتقاد بأن للأسرار أحجاماً صغيرة، أليس كذلك؟ فهي مثل الجواهر الثمينة، أو الأحجار الحادة، أو السكاكين، التي يمكن إخفاؤها وإبقاؤهـــا ســـرّية، لأن حجمها صغير. ولكن، هناك أسرارٌ ضخمة، ولشدة ضخامتها تبقى مخفية إلا بالنسبة إلى الذين يحاولون وضع أيديهم حـــولها واحتضانها. هذه الأسرار وعود مرتقبة. ونظر إليّ نظرة المتسوّل ذاتها.

شـــربتُ القهوة حتى آخر رشفة. شكرته، وفيما أنا ذاهبة تلفّظ باسمه لأول مرة: حسن.

أكتب إليك هذا في آخر الليل، وأتذكّر رسائلك التي أعيد قراءتها في الأصـــباح الباكـــرة، عندما تمرّ الأيام التي تكون *ما بين* مقعقعة من أمامي، مثل عربات قطار الشحن، وأتذكّر رسائلي التي تقرأها أنت في زنـــزانتك، أبتسم لمعرفتي سرّها الهائل، سرّنا، أنت وأنا.

وصلت الحرارة في هذا الصباح إلى عدّة درجات تحت الصفر، وقد وجد سيلفيو قطّة صغيرة بيضاء في زاوية من زوايا الساحة الرياضية المظلمة. للوهلة الأولى، ظن أنها كومة من الثلج. لا أحد يدري كيف وصلت إلى هناك. ربما سقطت من سطح جبل. كانت مستلقية على الإسفلت من دون حراك. انحنى سيلفيو ليفحصها عن قرب. أسرع السجّان مصوباً نحوه بندقية العوزي .5.S. وقف سيلفيو، وبدأ بالتفاوض، ملحا بإصرار على أن كادم جراح بيطري. تأكّد السجّان بعد اتصال أجراه بواسطة هاتفه الخلوي من صحة هذه المعلومات. وبعد ربع ساعة، وافق على أن يحتفظ سيلفيو بالقطّة الصغيرة في غرفة الاجتماعات العامة. فحصها كادم وقال إنه لا يوجد أي شيء يمكن فعله. كان ظهرها مكسوراً، وإذا كان بإمكانه - ولكن لم يكن هذا ممكنا - فقد يقوم بإعطائها حقنة. وضعها على بطانية قرب الموقد. كان فمها الأبيض مفتوحاً قليلاً. وكان لون لسانها أقلّ بياضاً بقليل من لون أسنانها، وكانت عيناها مفتوحتين. وعند الزفير ينبعث منها صوت كالفحيح. ثمّ استدارت على جنبها وبسطت أطرافها الأربعة. كانت قائمتاها الخلفيتان منبسطتين كمن يريد القفز، وكذلك كانت قائمتاها الأماميتان منبسطتين إلى الأمام. الجميع يراقب بصمت. بدأت بمسح وجهها بظهر كفيّها الأماميتين بدءاً من الأذنين وحتى الفم الأبيض وصولاً إلى ما فوق العينين. مسحت عينيها كمن يمسح أوهام الحياة، وحين انتهت من ذلك ماتت. لم يتكلم أحد. بدأ الشكّ يساور السّجانين.

وراحـــوا يذرعون المكان ذهاباً وإياباً، يُلقّمون بنادقهم ثم يوصدونها. هزّ كادم رأسه وابتسم. حمل القطّة الصغيرة بالبطانية. لم يتكلم أحد. كل واحد منّا كان صامتاً. تمتم كادم، مثل سارق عضّه كلب.

لقد هربت.

مي غوابو،

عندي ذكرى تعود إلى زمن طويل مضى. طويل، إلى درجة أنني لا أدري إن كانت تتعلّق بطفولتي، أم إن كانت ذكرى مما قد سمعته من الآخرين حين كنت طفلة. في بعض الأحيان، مي غوابو، تتساءل امرأتك المسنة إذا كانت جميع ذكريات الطفولة - وفي جزء كبير منها - هي مجرد إشاعات؟ في الطفولة نتعلم أشياء كثيرة بسرعة كبيرة إلى درجة أننا قد ننسى من أين جاءت هذه المعلومة في البداية. متى استوعبت معنى الموت لأول مرة؟ هل كان هذا من اكتشافي أو أن شخصاً ما كان قد حدّثني عنه؟ كيف عرفت أن المياه تتجه دائماً نحو الأسفل؟ اكتشفت ذلك لأول مرّة، بنفسي.

لديّ ذكرى حول شيء ما أودّ أن أشاركك إياه، ذكرى متعلقة بطريقة تصرّف خفيّة غير واضحة للنساء، وللرجال، وللمسنين، وللأطفال. ندرك هذا التصرف بطريقة غامضة، فهو ليس بالشيء الذي نبحث عنه، وبسرعة كبيرة نتعامل معه كشيء مسلّم به.

راقبْ الأشجار، انظر كيف تتحرك في مهبّ الريح. راقب الحيوانات وكيف يذهب كل منها في طريقه بحذر وبكلّ استقلالية. تركض، تتمهل، تحفر جحورها، وتطير، مثلها الأسماك وطريقتها في السباحة. أريد أن أجعلك تبتسم في الزنزانة رقم 73. تلك الابتسامة التي تبتسمها عندما تكتشف طريقة لتصليح شيء ما، ولكنك لم تتحقّق من فعاليّتها بعد؛ ابتسامتك نصف المحجوبة، تلك.

والآن، دعنا نتأمّل في حياة البشر؛ حياتهم العادية، في كل دقيقة، في كل يوم! إن حياتهم مبنية على توافق في الانتظام، والذي يساهم الجميع في إنجازه. والمحافظة على هذا الانتظام في الحياة هي الممارسة الخفية والمنسية التي أتحدّث عنها.

إنها الممارسة التي تفسّر وصول الفاكهة إلى السوق كلّ يوم، ووجود الإضاءة في الشوارع كل ليلة، والرسائل المندسة تحت الباب الأمامي، وأعواد الكبريت وترتيبها في اتجاه واحد في العلبة، والموسيقى التي نسمعها عبر المذياع، والابتسامات التي يتبادلها الغرباء. للانتظام إيقاع، إيقاع من بعيد، وفي أحيان كثيرة غير مسموع، ولكنه في الوقت ذاته شبيه بدقات القلب.

لا مكان للأوهام هنا. فالإيقاع لا يمنع العزلة، ولا يداوي الألم، ولا يمكنك أن تهاتفه. إنه، وببساطة، ما يذكّرك بأنك تنتمي إلى حكاية مشتركة.

واليوم، وفي حياتنا نجد أنفسنا محكومين بعدم انتظام لا نهاية له. وجميع الذين يفرضون علينا ذلك، يخافون من عدم انتظامنا، ولهذا يقيمون أسواراً ليحافظوا على وجودنا خارجاً. ولكن، لا يمكن لأسوارهم أن تستمر في امتدادها، وسيكون هناك دائماً طرقٌ ومنافذ حولها، وفوقها، وتحتها.

إلى اللقاء قريباً.

لك دوماً،

عايدة

أصابُ بالصدمة حين أفكّر في ما كنّا نقوم به قبل عشرين سنة، ومدى المخاطر التي كانت جزءاً من حياتنا آنذاك، والتي تجاهلناها أو لم ننتـــبه إليها في خضـم اندماجنا في النضال. ولكن، وبطريقة غريبة فــإن ما يطمئننا، ونحن نواجه ما نواجهه اليوم، هو إدراكنا أن الحياة المحفوفة بالمخاطر وعدم الاستقرار، هي مصدر قوتنا.

مي غوابو،

شكراً لك على حقل الياسمين الذي أرسلته إليّ بطريقة ما. أستلقي الآن فوق هذا الحقل.

طرأت لي فكرة أثناء استحمامي: إن كلّ ألم - وفي مرحلة ما - ينـــزلق منسابا نحو حرف الجواب *لا* ، يندمج فيها، ثم يستمر في طريقه. وكـــذلك كـــلّ متعة، فهي في مرحلة ما، تنـــزلق منسابة نحو حرف الجواب *نعم*، تندمج فيها، ثم تستمر في طريقها.

لك أقول *نعم*، وأمّا بالنسبة إلى حياتنا التي أجبرنا على أن نحياها، فأقول *لا* . ولكنني في الوقت ذاته أفتخر بتلك الحياة. أفتخر بما قمنا به. أفتخر بنا. وعندما أفكر في كلّ هذا أصبح شخصاً ثالثاً، أي لست أنت ولا أنا، وتصبح أنت أيضاً الشخص الثالث نفسه، بعيداً كل البعد عن أي *نعم أو لا* .

الـــيوم ولأنـــه عيد ميلادي أردّد الحرف *نعم*. أنظر إلى نفسي في المـــرآة. أقف وشعري مسدل وأقول *نعم*. ألحظ نعومة جلدي وسواد شعيراتي وأقول *نعم*. أتذكّر ما قرأته عن حبيب يقارن الجزء الأعلى من جسد حبيبته بالكافور، والجزء الأوسط بالعنبر، والجزء السفلي بالمسك، وأقول *نعم*.

تشتاق إليك ساقاي، وذراعاي، وترغب في أن تراها أنت، لا أنا. وفي بعـــض الأحيان أشعر بغضبها مني أمام هذا الشوق. تتلوى وتُلمِّح بـــأنني أنا السبب في عدم وجودك معها. وكلما ازدادت حركتها وهي في ذلـــك المزاج، كلما ازداد إلحاحها على عدم قدرتها على المغفرة لي،

وأنها لن تغفر لي أبداً! ومن تظنّين نفسك؟ أسأل بغضب. تجيب: أنا السعادة.

أغمض عينيّ وأطلب منها أن تتذكّر السجن، وما هو الشعور عند ذرع المكان ذهاباً وإياباً، الشعور عند الجلوس، أو عند الوقوف من دون حراك، وعند الانحناء، وعند النوم في زنزانة. وفي لحظة، تتذكّر كل ذلك معي. في السجن يُعرّى الجسد من مملكته، وكأي أشياء شخصية، يصادر الجسد عند الدخول إلى السجن. وعند مغادرة السجن، حين تُعاد ساعة اليد، والأساور، والمحفظة، ومبرد الأظفار، من دون المملكة، فعلى المرء أن يجدها من جديد، أرضا بعد أرض وعلى مهل.

أفتح عينيّ، ومرة أخرى أنظر إلى المرآة، ولأنها خارج السجن، فإن ساقيّ ويديّ تريد إغراءك، وإهداءك سعادتها.

نعم، نعم، نعم، نعم، كلّ *نعم* هي طبق سأعده للأصدقاء الذين دعوتهم. وسأقطع الخضار، وأشكّ اللحم في الأسياخ، وأخفق البيض واللبن، وأهرس الحمص، وأحضّر العجين لفطائر الحلوى، سأقشر فصوص الثوم، وأقطّع النعناع، وأهز الملوخية. أريد أن يظن ضيوفي أن جميع الأطباق قد نزلت عليهم. مفاجأة رائعة لم يتوقعوها. نعم.

أطباق كثيرة، وأحرف *نعم* كثيرة، وهكذا سأبتسم بكل ثقة عندما يسألونني عنك في هذا المساء، وسأتذكر طائر الهدهد الذي جلب الأخبار من ملكة سبأ، والذي يبني أعشاشه في الخرائب.

نعم، نهضت الشمس، والريح قد نهضت للتو، وهكذا نصبح ثلاثاً. هل ترى يا حبيبي شجرة اليوكاليبتوس في الجهة البعيدة من المربع؟ لو وقفت على رؤوس أصابعي في المدخل الأمامي – ارتديت

ثيابي أخيراً، تنورة طويلة بيضاء واسعة - فبإمكاني أن أراقبها، وأراقب انحناءاتها اللامتناهية مع الريح العاتية؛ إذ تبدو وكأنها ترقص! وتلك الأجزاء المقوّسة من جذعها والتي قلت إنه بإمكانك أن تصنع منها زورقاً، ما زالت تتساقط. كنت مخطئة، فشجرة اليوكاليبتوس ترقص! من أغصانها الخضراء تظهر أشرعة، وقارات بأكملها تتشكّل من أوراقها، جميعها ترقص وتتمايل معها، شجرة تضاهي أكثر النساء أنوثة. يا للسعادة. موسيقى اليوكاليبتوس. ما هذه الأوراك! نعم لعيد ميلادي.

فيما بعد، وبينما أحضّر وليمتنا، أرقص وأنا أقوم بكنس الأرض وترتيب الشراشف على الطاولات، ووضع المقاعد، ورقّ العجين، وطبخ الفطر، وتشريح الأناناس مع الحفاظ على القشرة، وتنسيق الأزهار، وتقليب اللحم، وتنظيف الكؤوس. أرقص. نعم، نعم، نعم... سيأتي العديد من الأصدقاء.

ذهب الآن آخر المدعوين. وحقلك من الياسمين، على حافة الشباك هناك، بدأ يتوقع أوّل النور. في الخارج، تغني العصافير بصوت عالٍ وتملأ الصمت. الصمت الذي يخلفه الموتى وراءهم. أحياناً كثيرة يكون هذا الصمت صمتاً لا يحتمل. صمت أميتارا، زكريا، سوزان، فيكتور، إميل، يحيى، وسيزار.

ولكنّ هذا الصمت، صمت مغلّف. صدقني، إنه مغلّف بالحنان. وإذا كنت تشكّ في ذلك، فتذكر كيف لمست بإصبعك باطن أحد أعشاش العصافير. إن تلك النعومة، وذلك الحنان هما نتيجة لغزوات ولمناوشات لا حصر لها، وأيضاً نتيجة لحنكة اكتسبت عبر الأزمنة، حنكة في كيفيّة بناء الأعشاش بما هو مرن فقط، بما هو مقاوم، وقوي. الملمس واحدة...

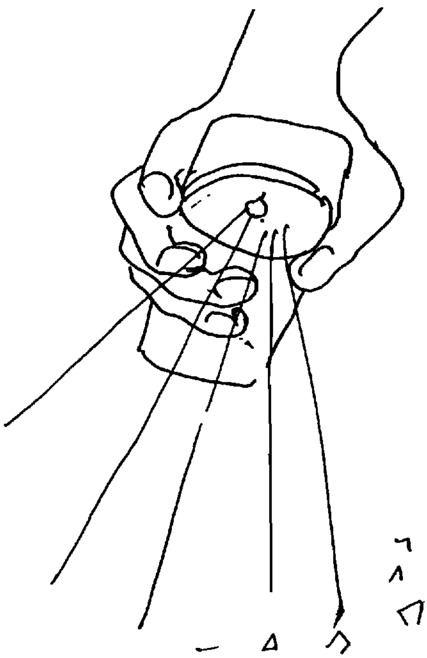
أنتظـــر لحظـــة حتى ألمسك، وبعدها سوف ننام. النوم هو البيت الأول. بـــيت من دون سقف، من دون جدران، أو سرير. هذه كلها أتـــت لاحقـــاً، مـــن وحي النوم. الليلة، هذه الليلة بعد عيد ميلادي، ســـآخذك يا حبيبـــي إلى البيت الأول. سأدسّه من تحت ذلك الباب الرهيب وستجدني داخله.

لك دوماً،

عايدة

نور،

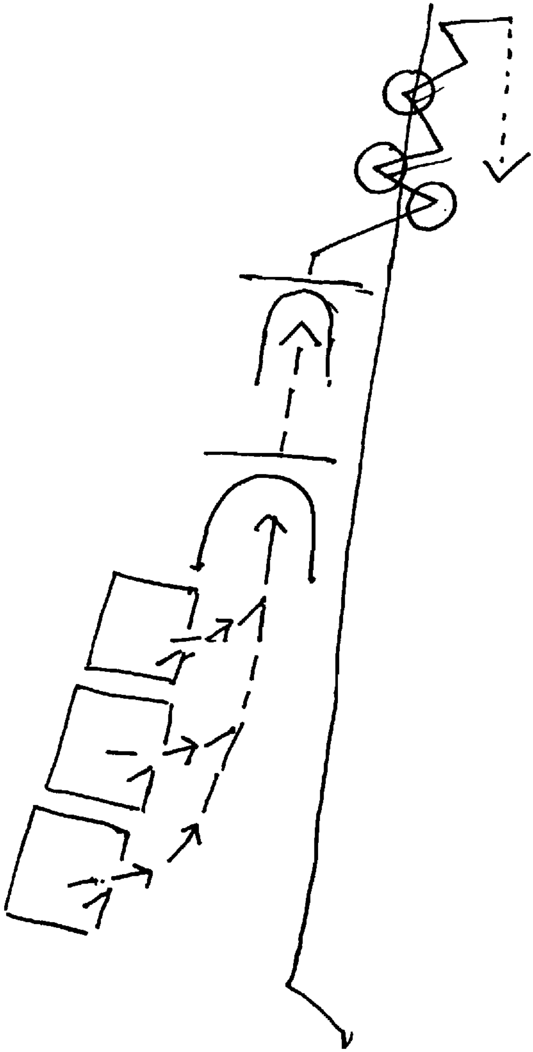
النوم هو البيت الأول. بيت من دون سقف، من دون جدران أو سرير. أتت هذه الأشياء لاحقاً، من وحي النوم. سآخذك هذه الليلة يا حبيبـــــي إلى البيت الأول. سأدسّه من تحت الباب الرهيب وستجدني داخله.



أنا لك في هذه الليلة.

عايدة

أخرُجُ الليلة.



شكر وامتنان

ليس بإمكان أي شخص أن يعرف كيف يتشكّل كتاب ما. ولكن، يمكن للمرء أن يذكر وبكل تأكيد بعض الذين كان لهم حضور جوهري في هذه العملية الغامضة. وأخصّ هنا:

أليكس، آن، بفرلي، شارلين، إيليا، غاريث، غي، هانس، آيونا، آيرين، إزابيل، جان-بيير، جيريمي، كمال، كاتيا، لطيفة، ليلى، محمود، ماريا.م، ماريا.ن، ميخائيل، ميشيل، ميشيل د.، ميشيل ر.، ناشو، نيللا، عمر، بترا، بيلار، رامون، ريما، ساندرا، سلجوق، تانيا، توم، ياسمينا، إيف، إيفون، زياد، فتحية. شكراً لكم.

جون برجر

نودّ التعبير عن الشكر والامتنان لكل من ساهم في دعم إصدار هذا الكتاب، وعلى الأخص: جون برجر، مي الصايغ، نهى طلاماس، فيرا نوفل، غازي الخليلي، هيو انستاين، دار فرسو للنشر، وفيصل درّاج.

د. فتحية السعودي وتانيا تماري ناصر

سيرة ذاتية

د. فتحية السعودي

- درست الطب، وطب الأطفال في فرنسا. تنقّلت في عملها بين لبنان والأردن وفرنسا. لها إصدارات باللغات الثلاث: العربية، الفرنسية والإنكليزية، من بينها **النسيان المتمرّد** بالفرنسية، و**أيام الجمر** بالعربية، وديوانا شعر باللغة الإنكليزية. ترجمت العديد من الكتب العلمية والأدبية. حصلت على أوسمة لنشاطاتها في المجالين الإنساني والثقافي، من بينها وسام الاستحقاق الفرنسي من رتبة فارس. تقيم حالياً في بريطانيا.

تانيا تماري ناصر

- من مواليد القدس. لها اهتمامات ومساهمات في الأمور الثقافية والفنية، خاصة المتعلقة بفلسطين. شاركت في تأليف وإعداد كتابين في مجال التطريز الفلسطيني التراثي والحديث، ولها عدة ترجمات وكتابات أدبية منشورة. وهي مغنّية كلاسيكية تركّز اهتمامها على أداء الأغنية العربية الحديثة. تقيم في بير زيت – فلسطين.

رواية رائعة عن الحبّ والمقاومة لكاتب من أهمّ الروائيين المعاصرين. تعيش عايدة في مدينة سوز، ذات الأجواء المغبرّة والمتداعية للسقوط، بينما يقبع كزافيه، صديقها المناضل، في السجن. رسائل عايدة إلى حبيبها، مشحونة بعزم وصمود وعاطفة جياشة وحنان مرهف. تسرد عليه الأحداث اليوميّة في المدينة، وتنقل له تفاصيل حياة مواطنيها بأطيافهم وتنوّعهم عبر سيرتها ويوميّاتها هي. ولكنّ المدينة مهدّدة. قوى خارجية غاشمة ومجهولة تحاصرها وتنتهك حقوق مواطنيها. وهكذا تتحوّل أدقّ تفاصيل الحياة اليوميّة والمواقف الإنسانيّة إلى مصدر لصمود عايدة وتشبّثها بالحياة، وطريق لمقاومة تلك القوى المدمّرة.

«من عايدة إلى كزافيه، من أكثر الكتب التي قرأتها منذ سنوات طويلة إثارة للمشاعر. تكمن قوّته في أسلوبه المحكم والمقتضب، وفي سرده قصّة حبّ يصمد في وجه الاضطهاد والظلم. رواية جاءت لتبرهن أنه مهما احتدّت شراسة القوى التي نواجهها، فلا يمكنها أبداً النيل من الحبّ أو الروح الإنسانية».

هارولد بنتر

«سجلّ قلق وملتزم ورائع للوعي الإنساني، وعرض مثير وبالغ المساحة وعميق، ويمكن قراءته، ليس كرواية فقط، بل كقصيدة ملحميّة أو نص غنائي».

ميليسا بين، جريدة الإندبندنت

جون برجر: روائي بريطاني، وكاتب سينمائي ومسرحي، وناقد. يعدّ أحد أهم الكتّاب العالميين المعاصرين الذين أغنوا المشهد الثقافي وأثّروا فيه خلال الخمسين عاماً الأخيرة. من بين أعماله الروائيّة «طرق الرؤيا»، «في أعمالهم»، «هنا حيث نلتقي»، و«احتضن كلّ شيء عزيز». نالت روايته «ج» جائزة «البوكر» لعام 1972، وجائزة جيمس تيت. أُدرج كتاب «من عايدة إلى كزافيه» ضمن قائمة الأعمال المرشّحة لجائزة البوكر لعام 2008. تُرجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة. وهو من بين أهمّ الأدباء العالميين المدافعين عن قضايا الإنسان العادلة والحريّات في العالم.

ISBN 978-614-01-0190-6

9 786140 101906

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

بورتريه الغلاف: من مجموعة «لوحات الفيّوم»، تعود إلى القرن الأول بعد الميلاد – تصميم الغلاف: سامح خلف